روايات الهلال

ثلاث سنوات

أنطون تشيخوف



روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٩٣ – سبتمبر ١٩٨١ – ذو القعدة ١٤٠١

No. 393 — September 1981

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: الدكتور حسين مؤنس

سكرتير التحرير: موسى عبيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج • م • ع • بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ويضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « روايات الهلال » الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للعادى فى مصر

سوريا : ٣٠٠ ق • س « ثلاثمائة قرش سورى »

لبنان : ٢٥٠ ق • ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »

الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »

الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »

العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »

السعودية : ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة •

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تمــاضر محمـــد تركى





أنطون تشيخوف



فـــــــؤاد دوارة

•

دار الــهــلال

المؤلف

● ولد أنطون بافلوفيتش تشيخوف فى ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ ، وكان جده من رقيق الأرض ، وصفه تشيخوف بقوله :

« كان جدى يتلقى ضربات سياط السادة من النبلاء ، وكان أصغر موظف فى الضيعة يستطيع تحطيم رأسه ، ومع ذلك كان يقسو فى جلد والدنا ، وكان والدنا ، يقسو فى جلدنا » .

وقرب نهاية هذه الرواية (ص ١٢٢) سنسمع بطلها يصف جده ووالده بنفس الكلمات تقريبا .

● أمضى تشيخوف طفولة تعسة ، ولم يكد يقترب من سن الشباب حتى وجد نفسه مسئولا عن اعالة الأسرة كلها ، فضلا عن دفع مصاريف دراسته للطب ، فأرهق نفسه فى اعطاء الدروس الخصوصية والتأليف .

● أتاح له عمله بالمستشفيات فرصة الاتصال المباشر بالفلاحين مما وضح أثره فى كتاباته ، وفى اهتمامه باصلاح أحوالهم التعسة .

● قام عام ١٨٩٠ برحلة شاقة الى جزيرة « سخالين » ، حيث درس أحوال المسجونين على الطبيعة وكتب عنهم بحثا ضخما احدث ضجة كبيرة .

● كتب أربع مسرحيات وعدة روايات ، ولكنه يعتبر رائد مدرسة أصيلة فى فن القصة القصيرة ، اذ وجهها الى تصوير موقف دافىء من الحياة دون اهتمام كبير بالحبكة على العكس من مدرسة « موباسان » الفرنسى .

● توفى فى ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤ .

مقدمة

تعتبر رواية « ثلاث سنوات » لتشيخوف نموذجا مصغرا من رواية « أسرة بادنبروك » للكاتب الالمانى توماس مان ، وان كانت قد كتبت قبلها بستة عشر عاما ، وقبل الجزء الأول من رواية « أسرة فورسايت » للكاتب الانجليزى جون جالزورثى باحدى عشرة سنة . ففى قصة « ثلاث سنوات » التى لا تزيد على مائة وثلاثين صفحة ، قدم لنا تشيخوف بأسلوبه المركز الشبيه بالحكم الابيجرامية ، الاحساس بحتمية الاختلاف بين الاجيال المتعاقبة ، وهو نفس الاحساس الذى عالجه كل من توماس مان وجالزورثى فى حجم اكبر بكثير .

وتتركز قصة تشيخوف حول زواج « لابتيف » ، الابن الأصغر لأحد التجار الأثرياء ، بابنة طبيب باحدى المدن الصغيرة . وموضوع قصة الحب شبيه بموضوع « افجينى أونجين » للشاعر الروسى الكساندر بوشكين ، مع قلب الأدوار ـ فالرجل فى « ثلاث سنوات » هو الذى يحب بشغف فى البداية ، والمرأة عند النهاية ، ولكن الصورة التى يرسمها تشيخوف لثلاث سنوات من زواجهما تتطلع الى الأمام والى الوراء ، فترينا من أين جاءا ، وماذا سيصبحان فى الأيام القادمة ، هما ومن يحيط بهما فى بيئة موسكو ، فضلا عن بيئة المدينة الاقليمية .

والحذق الرائع الذى كتبت به هذه الرواية البارعة جدير بالدراسة والمقارنة بروايتى توماس مان وجالزورثى للتعرف على الاختلافات

القومية والفنية بين هؤلاء الكتاب الثلاثة ..

فتشيخوف ، مثل توماس مان ، يرى أن هناك عملية تدهور فى حياة الأسرة التجارية ، وثمة أوجه شبه واضحة بين الكاتبين مرجعها الى « جو الآراء السائدة » فى العصر ، والى نماذجهما المشتركة من بين مؤلفات الطبيعيين الفرنسيين ، وبصفة خاصة اصرارهم على قوة العامل الوراثى ، ثم موقفهما الشاك المتسائل من البورجوازية . والمؤلفان بعد ذلك خاليان من روح المجاملة الموافقة لروح العصر ، تلك التى وجد تشيخوف مثلا عليها فى رواية « أسرة بولونتسكى » لسينكيفكز ، وقد قرأها حوالى عام ١٨٩٥ ، ووصفها بقوله :

« .. انها فطيرة بولندية بالجبن والزعفران مما يقدم فى عيد الفصح .. لقد استلهمت من رواية بورجيه : « مدينة عالمية » ومن روما ، ومن الزواج .. وهدف الرواية هو هدهدة البورجوازية لتستغرق فى النوم برفقة أحلامها الذهبية . لتخلص لزوجتك ، ولتصل معها فوق كتاب الصلوات ، ولتكسب مالا ، ولتحب الرياضة، وسيكون كل شيء على ما يرام معك فى هذا العالم والعالم الآخر . ان البورجوازية شديدة الهيام بما يسمى بالنماذج الايجابية ، والروايات ذات النهايات السعيدة طالما كانت تنافقها بفكرة انه من الممكن أن يكدس الانسان المال ويحتفظ فى الوقت نفسه ببراءته ، أى يكون وحشا وسعيدا فى ذات الوقت » .

من الواضح ان تشيخوف لم يكن يحب البورجوازية ، ولكنه يفسر انهيار هذه الأسرة التجارية بذاتية أقل من توماس مان ، بل لعله فعل ذلك برؤية اجتماعية أعمق . فالمؤلف الالمانى لا يستطيع أبدا أن يبتعد عن مشكلة الفنان ، فهو فى نظره نموذج للنتاج المتأخر ، الذى نضج أكثر مما ينبغى ، ونضجه غير سليم من الناحية البيولوجية اذا ماقورن بالبورجوازى الطبيعى ، وعلى

ذلك فهو يجعل أسرته التجارية « تنهار » وتتحول الى فنانين ، ثم تفنى فى النهاية . أما أسرة « لابتيف » التى يقدمها تشيخوف فلها تاريخ مختلف . فالرجل العجوز لا يختلف عن نمط رجال الأعمال الذين يردون فى الأدب البروتستانتى ، فهم راضون عن تصرفاتهم بأسلوب معوج ، وشخصياتهم مهما بدت ظاهرة التدين ، فهى تتكامل عادة حول غريزة تأكيد الذات . ولابتيف العجوز طاغية فى أسرته ، واله صغير فى نظر نفسه ، متعته الوحيدة فى الحياة ممارسة القوة والسيطرة . وهو لا يتميز بقدرة خاصة ، ولكنه فى صباه ، وفقا لما يقوله ابنه ، اتيحت له فرصة بداية معينة ، والتاجر يستطيع أن يكون ثروة كبيرة بطريقة تكاد تكون آلية ، « فالنقود تأتيه وحدها » . وهى فى هذه الحالة لا تقل عن ستة ملايين روبل ، كلها من ارباح تجارة الجملة فى الأقمشة والأشرطة والأزرار ونحو ذلك .

ان لابتيف العجوز لا يغادر متجره أبدا ، لا لشىء الا لانه يستمتع باصدار الأوامر لمساعديه من حوله والسخرية بالزبائن ، « وهو رئيس شرف فى الكنيسة لأنه يستطيع أن يتحكم فى أفراد الجوقة ويجعلهم يجثون على ركبهم أمامه » — بل انه ليقف فى الكنيسة وينقد القس على مشهد من الجميع لأنه لم يؤد كل طقس من الطقوس وفقا لمشيئته ، وهو كذلك وصى على احدى المدارس لسبب مشابه . أن ما يحبه التاجر الثرى ليس التجـــارة بل ممارسة النفوذ ، « ومتجركم ليس مؤسسة اقتصادية ولكنه حجرة تعذيب » .

وحين يعود لابتيف الشاب ، بعد غيبة استمرت بضعة أشهر ، يرى الصبية يجلدون ويلكمون فى أنوفهم كما كان يحدث له وهو غلام . وحين يكبرون ، كما يقول ، سيصنعون الشىء نفسه مع من يصغرونهم . ان العمال الخمسين يستغلون بلا رحمة ، ويعيشون فى ظروف بادية السوء بصورة غريبة ، حتى لقد أصبحوا حديث السوق

كنها . فهم يسكنون فى قبو - أو « بدروم » - بيت السيد ، مكدسين كل ثلاثة أو أربعة فى حجرة ، ويأكلون من طبق واحد ، رغم أن لكل منهم طبقه الخاص به ، وذلك لأنهم تنطبق عليهم القاعدة القائلة بأن الحريات المسموح بها نظريا قل أن تجد من يجرؤ على ممارستها ، بل هى لا تجد مثل هذا الشخص أبدا . فهم مثلا ، لايتزوجون ، وقلما يخرجون فى المساء ، لأنهم يجب أن يعودوا قبل حلول الساعة التاسعة ، ويعلمون أن السيد العجوز سيلاحظ فى الصباح التالى ان كانت رائحة « الفودكا » تفوح منهم أو لا . انهم أذلاء الى درجة الخنوع والنفاق ، ولذلك ففى كل منهم بذرة طاغية مستبد متى أتيحت له الفرصة .

وما يهاجمه تشيخوف فى هذه الرواية هو تلك التقاليد القبلية العتيقة التى تتيح لرب الأسرة أن يمارس سلطاته بلا حدود وبأسلوب خال من الانسانية . واذا كان رب الأسرة هنا فى بيئة تجارية ، فقد سبق لتشيخوف أن قدم فى قصص أخرى نماذج لرب الأسرة المتجمعة فى البيئة الريفية ، وهو فى الحالين ، مثل نموذجى صارخ على أن السلطة غير المحدودة تنتهى دائما الى الفساد .

وأبناء الجيل الحاضر من أسرة لابتيف لم يتصرفوا بسبب ازدياد انتشار الاحساس بالحرية فى العالم بشكل عام ، كأسلافهم ، فهم يعلمون أن ملاك الأرض كانوا يجلدون جدهم ، وأن جدهم بدوره كان يجلد اباهم ، ولكنهم هم انفسهم لم يستطيعوا ان يحتملوا وقع السياط بسعادة وهم متأكدون أن دورهم آت ليجلدوا أبناءهم وأتباعهم ، بل سمم الخوف حياتهم . لقد حملتهم امهم وهى خائفة . كانت فى السابعة عشرة حين زوجوها رجلا فى الخامسة والاربعين ، فكانت ترتعد لكل التفاتة من رأسه . وكان السوط هو معلم هؤلاء الأبناء ، وملأهم السأم من صلوات الأسر والكنيسة ، وبدأوا يعملون

فى المتجر منذ سن الثامنة ، وحتى حين الحقوا بالمدارس الثانوية ظلوا يعملون فيه نصف اليوم .

ولا شك ان تشيخوف قد عانى جانبا من هذه التجربة ، وكانت النتيجة ـ كما يقول لابتيف ـ القضاء على الرغبة فى الحياة فى نفسه ، فقد كان يعانى ، كما نستطيع أن نقول الآن ، احساسا بالنقص ، حتى فى مواجهة البوابين ورجال الشرطة . أما شقيقه ، فحين تفشل محاولاته غير الواعية لاخفاء تعاسته خلف قناع من الزهد فى المظاهر الاجتماعية ، فانه يتحول الى حطام منهار الاعصاب ، ويتمنى لابتيف لو أن « أسرتهم التجارية المرموقة تنتهى بوفاتها » .

وحينما كان لابتيف لا يزال طالبا فى الجامعة شجعه صديق له على القيام بمحاولة للاستقلال ، فاستأجر مسكنا خاصا به ، وقلل نصيبه فى العمل بالمتجر الى أقل حد ممكن ، وان ظل يتقاضى منه ألفين وخمسمائة روبل فى الشهر . وظل حتى بلغ الرابعة والثلاثين من عمره يعيش فى موسكو حياة أعزب مرح مع أصدقاء أذكياء وعشيقة ، وسط بيئة ذات ميول فنية واهتمامات موسيقية ووجهة نظر فردية شأن طبقة المثقفين ، رغم ان دخله الكبير كان يسمح له أن يكون كريما فى عطاياه .

لم يكن له دين ولا هدف معين فى الحياة ، يعيش متنقلا من نزوة الى أخرى ، وقد سيطر عليه خوف غامض غريب . وها هو ذا يحب الآن بعنف ، ولكن علاقته بـ « جوليا » كانت مسممة منذ البداية بفكرة ترجع الى حد كبير الى انعدام ثقته بنفسه ، وخلاصتها انها لم تقبل الزواج منه الاطمعا فى ماله ، مع أن حقيقة الأمر أنها تزوجته لتتخلص من أبيها وتعيش فى موسكو . وحينما بدأت تحبه فعلا بعد مرور ثلاث سنوات ، كان حبه لها قد مات ، وهناك اشارة الى أن مثلث

الكبت المألوف فى طريقه الى التكوين ، بالاشتراك مع أقرب أصدقائه – « بارتسيف » – الذى يحب جوليا .

وفى هذه الأثناء كان لابتيف قد أصبح رئيس المؤسسة التجارية ، ووجد نفسه سجين الثروة التى يمكنها أن تهبه الحرية . « كان مقتنعا بأن الملايين والعمل ، اللذين لا يكن لهما أقل حب ، سوف يفسدان حياته ، ويصنعان منه عبدا مرة أخرى ، والى الأبد . وأخذ يتصور كيف سيألف مكانته بالتدريج ، وكيف سيتقمص شيئا فشيئا دور مدير المؤسسة ، ويجد كل ما فيه من حساسية يتبلد ، وتتقدم به السن ، ثم فى النهاية يموت حقيرا ميتة النكرة الوضيعة المريرة ، بعد أن ظل سنوات عذابا لكل من حوله » .

ومع ذلك فبوسعه أن يقوم بمحاولة للفرار . « وكان منزعجا من نفسه ومن هذا الكلب الأسود المستلقى فوق الأحجار عند قدميه ، لأنه لم يجر هاربا الى الحقول والغابات ، حيث يستطيع أن يكون حرا وسعيدا . وكان من الواضح أن الشيء نفسه هو الذى يمنعهما هما الاثنان من مغادرة الفناء ، قوة العادة لا أكثر ، هى التى تجعلهما يهادنان الأسر ، ويقبلان حياة العبيد » .

ما السبب الكامن وراء ذلك الاحساس بالكبت الذى نجده فى كل مكان عند تشيخوف ؟

هل هو ، من وجهة نظره ، شيء تمنحه مع الحياة نفسها ، شيء ميتافيزيقى ، أو أنه نتيجة لسوء التوافق الاجتماعى ، فيمكن فى هذه الحالة تغييره بقدر كاف من جهد الارادة ؟ ..

من الواضح أن السبب فى هذا الكبت قوة تؤدى دورها ، على أقل تقدير ، خلال ظروف اجتماعية معينة ، وقد استطاع فى هذه الرواية أن يرسمها بوضوح بالنسبة لطبقة التجار .

والرواية باعتبارها صورة للسلوك الانسانى مقنعة وتفيض

بالحيوية ، كما أنها تقدم كثيرا من خصائص تلك الطبقة التى كانت آخذة فى الانقراض وقت كتابة الرواية ، وكانت بعض ملامحها الخارجية قد زالت ، أو فى طريقها للزوال من موسكو فى ذلك الوقت ، كالملابس مثلا ، ولكننا نلحظ فى الرواية مع ذلك تلك الآداب المراعاة فى طقوس الكنيسة ، والتهكمات والتلميحات وبعض التعبيرات الخاصة ، وآداب السلوك المتأنق ـ وبصفة خاصة فى ذلك الاستقبال الوقور لعروس الابن فى بيت الأسرة فى احتفال دينى متقن ـ ثم عدم وجود دفاتر حسابات فى المتجر ، وبالتالى عدم وجود الادارة الموضوعية التى تعتمد على العقلانية الصارمة على النحو المألوف فى المؤسسات التجارية الغربية التى فى مثل هذا الحجم .

عن كتاب « روسيا فى أدب تشيخوف»
تأليف : و . هـ . برافورد

– ١ –

كان الظلام لا يزال مخيما ، باستثناء بعض الأضواء المنبعثة من النوافذ هنا وهناك ، ومن القمر الشاحب وهو يرتفع هناك بعيدا خلف الثكنات عند نهاية الشارع . جلس لابتيف على مقعد خشبى امام بيته ، ينتظر انتهاء صلوات المساء فى كنيسة « بطرس وبولس » . بعد قليل ستمر « يوليا سيرجيفنا » فى طريق عودتها من الكنيسة الى بيتها ، وسوف يتحدث اليها ، وقد يمضى المساء كله معها ..

ظل ينتظر أكثر من ساعة ، وعادت به أفكاره الى مسكنه فى موسكو ، وأصدقائه هناك ، وخادمه « بيوتر » ، والمكتب فى حجرة مكتبه . وأخذ يحدق فى الأشجار الداكنة الساكنة ، وبدا له غريبا أنه بدلا من أن يستأجر منزلا ريفيا فى « سوكولنيكى » يعيش فى هذه المدينة الاقليمية الصغيرة ، حيث تثير قطعان الماشية سحبا من الغبار وهى تتجول فى الصباح والمساء خلف أبواق رعاتها المصنوعة من قرون البقر . وانتقل تفكيره بعد ذلك الى المناقشات التى لا تنتهى مع أصدقائه فى موسكو حول امكان الحياة بهدوء دون حب ، وحول أن الحب ليس الا مرضا نفسيا ، واخيرا كيف أن الحب شىء لا وجود له ، وأن الأمر لا يعدو ان يكون انجذابا جسديا بين الجنسين .. وهكذا . وملأه الحزن وهو يتصور ان أحدا لو سأله الآن عن الحب ، لما عرف ماذا يقول له .

انتهت الصلاة ، واندفعت الجموع خارجة من الكنيسة . واخذ

لابتيف يرمق ، فى شيء من الحذر ، الآشباح السوداء المتحركة فى الشارع . ها هو ذا القسيس يبتعد عن عربته ، وتتوقف أصوات الأجراس ، والأضواء الخضراء والحمراء المعلقة فى برج الكنيسة احتفالا بعيدها بدأت تنطفيء واحدا اثر الأخرى ، ولكن الشارع ما زال ممتلئا بالناس مع ذلك ، بعضهم يمضى فى طريقه ، والبعض الآخر يقف ليتحدث تحت نوافذ المنازل . وأخيرا سمع لابتيف صوتا مألوفا له ، وتلاحقت خفقات قلبه . ولكن يوليا سيرجيفنا لم تكن وحدها ، كانت بصحبة سيدتين أخريين . فقال بهمسة يائسة :

— « آه يا عزيزتى ، آه يا عزيزتى ! هذا فظيع ! » .

توقفت عند ناصية الشارع لتودع رفيقتها ، وحين رفعت رأسها لمحت لابتيف الذى قال :

— « كنت فى طريقى لزيارة والدك ؟ هل هو فى البيت ؟ » .

وأجابت :

— « أعتقد ذلك ، فما زال الوقت مبكرا على موعد ناديه » ..

كانت الحدائق تحف بالشارع من الجانبين ، وفى أحد الجانبين وتحت ضوء القمر كانت أشجار الليمون تلقى بظلالها القاتمة على البوابات والأسوار المحيطة بها ، ومن وسط الظلمة انبعثت همهمات نسائية خافتة وضحكات وتوقيع هادىء على « بلالايكا » . أثارته هذه الأصوات والرائحة المنبعثة من أزهار الليمون والأعشاب ، فود لو طوق رفيقته بذراعيه وأمطر وجهها ، ويديهـــا ، وكتفيها بالقبلات ، وألقى بنفسه باكيا عند قدميها يخبرها كم ظل ينتظرها . كانت تنبعث منها رائحة بخور عالقة بكيانها ، عادت به الى ذكريات الأيام التى كان فيها هو أيضا مؤمنا بالله ، يحضر صلوات المساء ، ويتوق للحب الشاعرى الطاهر . وكان يدرك أنها لا تحبه ، لذلك أحس أن السعادة التى كان يحلم بها وقتذاك لن تتحقق أبدا .

تحدثت بعطف عن مرض شقيقته نينا فيودروفنا . فمنذ شهرين أجرت نينا عملية سرطان والجميع يتوقعون الآن أن تتعرض لنكسة . وقالت يوليا سيرجيفنا :

– « لقد ذهبت لزيارتها هذا الصباح ، وأعتقد انها قد تغيرت – حقا انها لم تعد نحيلة كما كانت فى الأسبوع الماضى ، ولكنها ذابلة بعض الشىء مع ذلك » ..

وقال لابتيف :

« حقا ، انها لم تتعرض لنكسة فعلية ، ولكنى أستطيع أن أرى مع ذلك انها تزداد ضعفا كل يوم ، أراها تذوى أمام عينى ، ولا ادرى حقيقة ما بها » ..

وبعد لحظة من الصمت عادت يوليا سيرجيفنا تقول :

– « من يستطيع أن يتصور كيف كانت حتى عهد قريب ، فى أتم صحة ، ممتلئة الجسد ، محمرة الخدين . وكان الجميع هنا يسمونها « فتاة موسكو » . شد ما كانت تضحك ! وفى أيام العطلات كانت ترتدى ثياب الفلاحات ، وكانت تلائمها الى أبعد حد ! » .

كان الدكتور سيرجى بوريستتش لا يزال بالبيت ، وهو رجل بدين أحمر الوجه ، يرتدى سترة طويلة تصل الى ما تحت ركبتيه وتجعله يبدو قصير الساقين . وكان يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهابا وقد وضع يديه فى جيوبه ، وهو يهمهم لنفسه لحنه المعتاد « رو – رو – رو – رو ! » . وكان سالفاه الرماديان مشعثين ، وشعره مهوش وكأنه استيقظ من النوم لتوه . وكذلك حجرة مكتبه ، الوسائد على الأريكة ، وأكوام الورق القديمة فى أركانها ، وكلبه العجوز تحت المائدة يبدو مشعثا ومتجهما كالطبيب نفسه ..

وقالت ابنته وهى تقتحم حجرة مكتبه :

– « مسيو لابتيف يرغب فى رؤيتك » ..

ودندن الطبيب وهو يتجه الى حجرة الاستقبال :

ـ « رو ـ رو ـ رو ـ رو » ، ثم قال وهو يصافح لابتيف :

« أهلا بك ، ما هى الأخبار السعيدة ؟ » .

كانت حجرة الاستقبال مظلمة ، ووقف لابتيف ممسكا بقبعته فى يده ، واخذ يعتذر عن تطفله ، ويسأل عما يمكن عمله لمساعدة شقيقته على النوم أثناء الليل ، ولماذا تزداد نحولا ، وبينما هو يسأل الطبيب، كان يضايقه احساس غير مريح بأنه سأل الأسئلة نفسها أثناء زيارة الطبيب الصباحية . وقال :

ـ لعل من الضرورى أن نستدعى اخصائيا من موسكو ، ما رأيك ؟ » .

تنهد الطبيب ، وهز كتفيه بلا مبالا ومد ذراعيه ..

كان من الواضح أنه يشعر بأنه أهين ، فقد كان شديد الحساسية بشكل عام ، يتصور دائما أن الناس لا يثقون به ، ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يحترمونه كما ينبغى . مرضاه يسيئون استغلاله ، وزملاؤه يحقدون عليه ، وكان يضحك من نفسه بمرارة ، ويقول ان الحمقى من أمثاله يعرضون أنفسهم للاستهانة بشأنهم ..

أضاءت يوليا سيرجيفنا المصباح . واستطاع لابتيف أن يدرك من ملامحها الفاترة وحركاتها المسترخية أنها مرهقة من الصلاة بالكنيسة ، وأنها بحاجة للانفراد بنفسها . وجلست على الوسادة وقد وضعت يديها فى حجرها وسرحت مع أفكارها ..

كان لابتيف يعلم أنه لم يكن وسيما ، وهو يدرك ذلك الآن بشكل ملموس . كان أميل للقصر ، ضعيف البنيان ، محمر الخدين ، وشعره بدأ يخف من أعلى حتى أصبح راسه شديد الحساسية للبرد . وكان وجهه خاليا من ذلك السحر البسيط الذى يجعل حتى الوجوه العادية تبعث السرور فى نفس من يراها ، وكان

يضطرب فى حضرة النســـاء ، ويسرف فى الثرثرة ، ويتكلف فى سلوكه . وهو الآن يحتقر نفسه من أجل ذلك . كان يعلم أنه لابد من أن يبدأ حديثا ما اذا لم يشأ أن تشعر يوليا سيرجيفنا بالملل من صحبته . ولكن فيم يتحدث ؟ .. مرض أخته مرة أخرى ؟

بدأ يتحدث عن الطب ، وقال كل الأشياء المعتادة ، وأوصى بأن يحافظ الانسان على صحته ، ثم أعلن أنه منذ زمن طويل يدرس فكرة افتتاح فندق فى موسكو ، وأنه قام بالفعل بعمل التقديرات اللازمة لذلك . « والعامل الذى سيحضر لقضاء ليلة فى فنـدق سيقدم له طبق ملىء بحساء الـكرنب مع الخبز ، وفراش دافىء نظيف بملاءة ، وسيجد مكانا يجفف فيه ملابسه وحذاءه ـ كل ذلك مقابل خمسة أو ستة كوبكات » ..

كان من عادة يوليا سيرجيفنا أن تظل صامتة فى حضرته ، ولكنه بطريقة غريبة ، وبما بغريزة العاشق ، كان يخمن أفكارها وما تريد عمله . وفى هذه اللحظة كذلك ، كان يقول لنفسه ، ما دامت لم تذهب الى حجرتها لتغير ملابسها وتحتسى الشاى بعد صلاة المساء ، فلابد انها ستعود الى الخروج .

واصل حديثه فى غير ارتياح فقال للطبيب :

ـ « ولكننى لست متعجلا بشأن الفندق » .

حدق فيه الطبيب دون اهتمام ، وان كان من الواضح أنه يتساءل بينه وبين نفسه لم تحدث فى موضوع الطب والمحافظة على الصحة . ومضى لابتيف يقول :

ـ « الأغلب أنى لن أحتاج لهذه التقديرات بسرعة . أنا أخشى أن يقع الفندق فى أيدى بعض أصدقائنا المنافقين الدجالين ، أو أولئك السـيدات من دعاة الانسانية اللائى يفسدن كل مشروع نافع » ..

وقفت يوليا سيرجيفنا ومدت يدها قائلة :

ــ « اذا سمحت لى يجب أن أذهب . أرجوك بلغ تحيـــاتى لشقيقتك » ..

أخذ الطبيب يدندن : « رو ــ رو ــ رو ــ رو » .

خرجت يوليا سيرجيفنا ، وبعد أن خرجت ببرهة وجيزة استأذن لابتيف من الطبيب وعاد الى بيته . واذا بكل أشجار الليمون ، والظلال ، والسحب ، وكل ما فى الطبيعة من جمال فطرى أنيق يبدو فى نظره الآن تافها ، شأنه دائما حين يكون الانسان غير راض أو تعسا . ارتفع القمر فى كبد السماء وتلاحقت السحب تحتـه مسرعة كأنها فى سباق ..

وقال لابتيف لنفسه « يا له من قمر ريفى ساذج ، ويا لها من مجموعة من السحب تدعو للرثاء » . كان خجلا من نفســه لأنه تحدث عن الطب وعن فندقه ، وأفزعه أن يتذكر انه فى الغد لن يستطيع مرة أخرى مقاومة اغراء الرغبة فى رؤيتها والتحدث معها ، وانه سوف يقنع نفسه من جديد بأنها لا تهتم به . وسوف يحدث الشيء نفسه فىاليومالتالى . متى وكيف سينتهى كل ذلك ؟ ..

***

ما أن وصل لابتيف الى البيت حتى ذهب الى حجرة شقيقته ..

كانت نينا فيودروفنا لا تزال محتفظة بمظاهر الصحة والعافية فمن الممكن ألا يعتقد الانسان أنها مريضة لولا شحوبها المخيف الذى يضفى على وجهها حين تستلقى على ظهرها ونغاق عينيها مظهرا كالأموات ..

وكانت ساشا ، كبرى بنتيها ، وهى فى العــاشرة من عمرها ، جالسة الى جوارها تقرأ بصوت عال فى كتاب مدرسى .

وتمتمت المريضة قائلة :

ـ « ألكسى هنا » .

كان هناك ثمة اتفاق متفاهم عليه بين ساشا وخالها على أن يتناوبا الجلوس الى جوار فراش المريضة . فأغلقت ساشا كتابها وانسلت خارجة دون كلمة . وأخذ لابتيف رواية تاريخية من على مائدة الزينة ، وعثر على الصفحة المطلوبة ، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع .

كانت نينا فيودروفنا من بنات موسكو . قضت طفولتها مع شقيقها فى منزل والدهما التاجر بشارع بياتنيتسكايا . وكانت طفولة طويلة حزينة . فقد كان أبوها شديد الصرامة فى معاملتها ، بل لقد ضربها بالسوط أكثر من مرة ، وماتت والدتها بعد مرض طويل . وكان الخدم كسالى ، خشنين ومنافقين ، والرهبان والقسس الذين يترددون على البيت كانوا هم أيضا خشنين ومنافقين، كانوا يأكلون ويشربون بشهية ويثنون على أبيها الذى يحتقرونه . وكان الصبيان محظوظين اذ أتيح لهما الذهاب الى المدرسة ، أما نينا فقد ظل تعليمها قاصرا ، فقد تعلمت القراءة والكتابة لا أكثر . وكانت لا تقرأ شيئا سوى الروايات التاريخية . وحين بلغت الثانية والعشرين ـ منذ ما يقرب من سبعة عشر عاما التقت بزوجها الحالى بانوروف ، خلال صيف أمضوه بالريف فى « خيمكى » فأحبته وتزوجته سرا ضد رغبة أبيها . فبانوروف صاحب الارض الوسيم المغرور ، الذى يصفر بفمه ويشعل سيجارته من مصباح الايقونة المقدسة ، كان تافها حقيرا فى رأى الرجل العجوز ، وحين بدأ زوج ابنته يرسل اليه خطابات يطالبه فيها ببائنة ، كتب الى ابنته يقول انه يرسل اليها معاطف الفراء والفضيات وغيرها من حاجيات والدتها ، وفوقها ثلاثون ألف روبل ، ولكنه يرفض أن يباركها . وبعد مدة ، أرسل اليها عشرين الف روبل أخرى . ولم يمض وقت طويل الا وكانت النقود والبائنة قد انتهت ، وبيع المنزل

الريفى ، وانتقل بانوروف مع أسرته الى المدينة ليعمل موظفا فى ادارة المحافظة .. وهناك كون لنفسه أسرة أخرى ، فأثار ذلك شائعات كثيرة ، خاصة وانه لم يحاول اخفاءه .

***

كانت نينا فيودروفنا تعبد زوجها ، والآن وهى تنصت للرواية التاريخية ، كانت تفكر فى كل ما مرت به خلال السنوات الماضية ، وكيف ان قصة حياتها الخاصة ستكون حزينة جدا لو قدر لأحد أن يكتبها .. ولما كانت أعراض المرض فى صدرها ، فقد كانت مقتنعة تماما ان مرضها كان نتيجة لحب شقى ، وان الدموع والغيرة قد سلبتاها صحتها .

أغلق الكسى فيودروفيتش الكتاب وقال :

ـ « وهكذا انتهت هذه الرواية والحمد لله ، وغدا نبدأ رواية أخرى » .

ضحكت نينا فيودروفنا ، فهى تضحك بسهولة دائما ، ولكن لابتيف بدأ يلاحظ أن مرضها يؤثر فى بعض الأوقات على عقلها ، فتضحك لكل تافه من الأمور ، وأحيانا بلا سبب بالمرة .

وقالت :

ـ « يوليا كانت هنا هذا الصباح ، بعد أن خرجت ، لا أظن انها تؤمن بأبيها كثيرا ، فقد قالت دعى أبى يعالجك ، ولكنى يجب أن أنصحك بأن تكتبى أيضا بصفة سرية لذلك الرجل المبارك كى يصلى من أجلك . فهناك رجل مبارك فى المدينة كما تعلم . وقد نسيت يوليا مظلتها ، يجب أن ترسلها اليها غدا » . ثم واصلت حديثها بعد قليل :

ـ « ولكن حينما تأزف النهاية لا يفيد أطباء ولا مباركون » .

وسألها لابتيف ليغير الموضوع :

ــ « نينا ، لم لا تنامين الليل ؟

ــ لا أعلم . كل ما فى الأمر انى لا أستطيع . انى أستلقى وأظل مستيقظة أفكر .

ــ وفيم تفكرين يا عزيزتى ؟

ــ فى الأطفال ، وفيك .. وفى حياتى . لقد عانيت الكثير يا ألكسى . وحين أتذكر كل شيء ــ ياالله ! » .

وضحكت ثم واصلت حديثها :

ــ « لقد ولدت خمس مرات ، ودفنت ثلاثة أطفال .. فى بعض الأحيان كنت على وشك الوضع وعزيزى جريجورى نيكولافيتش جالس هناك مع تلك المرأة ، فلا أحد أرسله لاستدعاء القابلة . وحين أخرج الى الصالة أو المطبخ باحثة عن الخادمة ، أجد أمامى .. يهودا وتجارا ومرابين جالسين فى انتظار عودته ، فيكاد رأسى ينفجر .. انه لا يحبنى ، وان كان لم يقل ذلك أبدا . لم يعد ذلك يهمنى الآن أو يؤذى مشاعرى ، ولكننى حينما كنت أصغر سنا كنت غاية فى التعاسة ، غاية فى التعاسة يا عزيزى . مرة وجدته فى الحديقة مع احدى السيدات ــ وكنا نعيش فى الريف وقتذاك ، فاستدرت وسرت مبتعدة دون أن أعلم الى أين أنا ذاهبة حتى وجدتنى أمام الكنيسة . جثوت على ركبتى وصرخت ، « أيتها الام المباركة ! » وكان الظلام قد انتشر ، وأشرق القمر » ..

وتوقفت تسترجع أنفاسها ، وبعد أن استراحت قليلا امسكت بيد شقيقها وقالت بصوت خال من التعبير :

ــ « ما أطيبك يا ألكسى ، وما أشد لطفك ، وطيبة قلبك ! » .

غادر لابتيف حجرة شقيقته فى منتصف الليل ، وأخذ معه مظلة يوليا سيرجيفنا رغم تلك الساعة المتأخرة وقد وجد الخدم يحتسون الشاى فى حجرة الطعام . وقال لنفسه ان البيت خال

من كل نظـام . كانت الطفلتـــان لا تزالان مستيقظتين وفى حجرة الطعام أيضا . وكانوا يتحـــدثون بصوت منخفض ، وبأصـــوات مضطربة ، دون أن يلاحظوا ان المصباح المرتعش يوشك ان ينطفىء : فقد كان الكبار والصغار على السواء منزعجين بسبب بعض نذر السوء التى ظهرت أخيرا .

مرآة الصالة شرخت ، وابريق الشاى الكبير يصدر صفيرا كل يوم ، بل كان يصفر الآن أيضا كأنما من الحقد ، وقالوا ان فأرا قفز من حذاء نينا فيودروفنا وهى توشك أن تضع قدميها فيه . وحتى الاطفال أصبحوا يعرفون الآن الدلالة المخيفة لهذه النذر . كانت ساشا ، وهى أكبر الفتاتين ، نحيلة ، سوداء الشعر ، تجلس الى المائدة بلا حراك وقد بدا عليها الخوف والألم ، أما ليدا الصغيرة الشقراء ، وهى فى السابعة من عمرها ، فكانت تقف الى جوارها متجهمة للنار .

هبط لابتيف الى جناحه فى الدور الأرضى ، وكانت حجراته خانقة منخفضة السقف ، تنبعث منهـــا رائحة كرائحة الاعشاب الرطبة . ووجد زوج نينا فى حجرة جلوسه يقرأ جريدة . هز لابتيف رأسه وجلس فى مواجهته دون أن يتفوه أى منهما بكلمة ، فقد كان باستطاعتهما أن يمضيا معا أمسيات كاملة على هذا النحو دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

ونزلت الفتاتان لتقولا مساء الخير . ودون كلمة رسم باروف علامة الصليب عليهما وسمح لهما بتقبيل يده ، فانحنيتا واتجهتا الى لابتيف الذى رسم عليهما علامة الصليب أيضا وأعطاهما يده لتقبلاها . وكانت هذه المراسيم تتكرر كل مساء .

وحين ذهبت الفتاتان ألقى بانوروف صحيفته جانبا وقال :

ـ « ألا ما أشد سخافة الحياة هنا فى هذه المدينة التى تخاف الله ! اعترف يا صديقى العزيز » .

ثم أضاف وهو يتنهد :

« انى سعيد جدا لأنك وجدت أخيرا ما يسليك » .

وسأل لابتيف :

ـ « عم تتحدث ؟

ـ لقد رأيتك خارجا من منزل دكتور بيلافين منذ بضعة أيام . أعتقد أنك لم تذهب الى هناك من أجل الأب ؟ » .

وأجاب لابتيف وقد احمر وجهه :

ـ « بالطبع لا .

ـ هـذا أمر طبيعى . بالمناسبة ، ان أباها ذاك عجوز أحمق ومزعج ليس بوسعك أن تتصور مدى غبائه وثقل ظله ! انه جلف عاجز مغرور . أنتم سكان العاصمة ما زلتم لا ترون سوى الجانب المشرق فى الأقاليم ، كالمناظر الشاسعة وأنطون جورميكا ، ولكنى أؤكد لك يا صديقى انه ليس فى الأقاليم كلها أى جانب مشرق . بل لا شىء غير التوحش ، والانحطاط ، والقذارة . ولنأخذ على سبيل المثال مصادر الضوء والمعرفة ، أو من نسميهم بالمثقفين . فى هذه المدينة ثمانية وعشرون طبيبا ، كلهم كونوا ثروات ويسكنون منازل يملكونها . ومع ذلك فما زال أهل المدينة مرضى عاجزين كما هم . وحينما تحتم علينا أن نجرى عملية لنينا ، وأذكرك أنها عملية بسيطة ، اضطررنا الى استدعاء جراح من موسكو ــ فلم يكن هنا جراح واحد يستطيع اجراءها . تصور ! انهم لا يعرفون شيئا ، ولا يفهمون شيئا ، ولا يهتمون بشىء . جرب مرة واسألهم عن السرطان مثلا ما هو ، وما أسبابه » .

ومضى بانوروف يشرح ما هو السرطان . كان خبيرا فى كل فروع

العلم ، وكان لديه لكل شيء تعليل علمى ، وان كان تعليلا خاصا به . كانت لديه نظريته الخاصة عن الدورة الدموية ، وكان لديه علم كيمياء وعلم فلك خاصان به ، وكان يتحدث ببطء ، وبرقة المتفضل ، وعيناه نصف مغمضتين ، ويتعجب قائلا « تصور هذا ! » فى همس شبه متوسل تسبقه وتعقبه تنهيدات وابتسامات متلطفة . كان من الواضح انه شديد الاعجاب بنفسه ، لا يحس بالمرة بأنه فى الخمسين من عمره .

وقال لابتيف :

ـ « أنا جائع . شيء من الطعام المحفوظ قد يؤدى المطلوب . فهذا شيء من السهل اعداده » .

***

وبعد قليل كان لابتيف وزوج شقيقته جالسين فى حجرة الطعام بالدور العلوى يتناولان عشاءهما . احتسى لابتيف كأسا من « الفودكا » ثم أتبعه بالنبيذ . أما بانوروف فلم يشرب شيئا . فهو لا يشرب أبدا ولا يلعب الورق ، ومع ذلك استطاع أن ينفق ثروته وثروة زوجته ويغرق نفسه فى الديون كذلك . فيضيع كل هذا القدر الكبير من المال فى مثل هذا الوقت القصير لا يتطلب قدرا من الرذيلة بقدر ما يحتاج الى نوع خاص من الموهبة . وكان ببانوروف ضعف خاص للطعام الجيد ، والخدمة الممتازة ، والغداء على عزف الموسيقى ، وانحناء الخدم الذين يلقى اليهم عادة بورقة من ذات العشرة روبلات ، وأحيانا من ذات الخمسة والعشرين ، كبقشيش ، وهو يسهم بصفة دائمة فى كل أنواع الاشتراكات واليانصيب ، ويرسل الأزهار الى كل صديقاته فى أيام أعيادهن ، ويشترى الكؤوس ، والحوامل الزجاجية ، وأزرار القمصان ، وأربطة العنق ، والعصى ، وحلى الزينة اليابانية ، وكل أنواع الغرائب ، ولا يرتدى

فى المساء الا قمصـــــانا من الحرير ، وسريره من الآبنوس المطعم بالصدف ، ورداء نومه من حرير « بخارى » الأصلى ، وهكذا ، وكل ذلك يكلفه « أكواما من النقود » على حد تعبيره .

كان طوال العشاء يتنهد ويهز رأسه ، ثم قال بلطف وقد ضاقت عيناه السوداوان :

— « نعم ، لكل شيء نهاية فى هذا العالم . تقع فى الحب ، وتقاسى ثم تتخلص من الحب مرة أخرى ، وستخونك حبيبتك لان كل النساء خائنات ، ان عاجلا أو آجلا ، فتقاسى وتيأس ، وفى النهاية تخونها أنت أيضا . ولكن سيأتى الوقت الذى يصبح فيه كل ذلك مجرى ذكرى تتحدث عنها ببرود وتعتبرها عبثا لا أكثر ولا أقل » .

كان لابتيف مرهقا وقد لعبت الخمر برأسه قليلا ، فنظر الى رأس بانوروف الآنيق بلحيته السوداء المشطة بعناية ، واحس انه يفهم لماذا كانت النساء شديدات التعلق بهذا الرجل الوسيم ، المتدفق ، الواثق بنفسه .

***

بعد العشاء ذهب بانوروف الى مسكنه الآخر . وصاحبه لابتيف فى جزء من الطريق . وكان بانوروف هو الشخص الوحيد فى المدينة الذى يرتدى قبعة عالية ، والى جوار الأسوار الرمادية ، والبيوت الخشبية الفقيرة والشجيرات الصغيرة اذا بقامته الأنيقة المعتزة ، وقبعته العالية ، وقفازيه الصفراوين ، تبدو غريبة شاذة ومثيرة للأسى على نحو من الأنحاء .

ودعه لابتيف ثم سار ببطء عائدا الى البيت . كان ضوء القمر قويا الى أبعد حد حتى لقد استطاع لابتيف أن يرى بوضوح كل قطعة صغيرة من العشب ، وأحس لابتيف وكأن ضوء القمر يقبل

رأسه العارى بلمسة رقيقة حانية .

وقال بصـــــوت مرتفع : « أنا أحب ! » . كان يريد أن يلحق ببانوروف ، ويعانقه ، ويعفو عن كل أخطائه ، ويتقدم له كمية كبيرة من المال ، ثم يجرى الى مكان ما فى الحقول أو الغابات دون أن ينظر خلفه .

***

وحين عاد الى البيت رأى على أحد المقاعد المظلة التى نسيتها يوليا سيرجيفنا ، فأخذها ، ورفعها ، وضغط عليها بشفتيه . كانت مظلة من الحرير ، ولكنها ليست جديدة بحـال ، وكانت مربوطة بشريط قديم من المطاط ، ولها مقبض من العظم الأبيض الرخيص . فتحها لابتيف ووضعها فوق رأسه وبدا له أن يستشعر أنفاس السعادة الحقة .

جلس على أحد المقاعد بارتياح وهو ما زال ممسكا بالمظلة ، ثم بدا يكتب خطابا لواحد من أصدقائه فى موسكو .

« عزيزى كوستيا العزيز لدى لك بعض الأخبار : لقد وقعت فى الحب مرة أخرى ! وأقول « مرة أخرى » لأنى منذ ست سنوات وقعت فى حب ممثلة من ممثلات موسكو لم أنجح فى مقابلتها ، ومنذ عام ونصف وأنا أعيش مع « الشخص » الذى تعرفه — وهى امرأة ليست صغيرة ولا جميلة . آه ، يا صديقى العزيز ، ما أشد تعاستى فى الحب ! لم أكن موفقا أبدا مع النساء ، واذا كنت أقول « مرة أخرى » فما ذلك الا لأنه من المؤلم والمحزن أن أعترف لنفسى بأن شبابى قد انقضى دون حب وانى الآن فقط فى الرابعة والثلاثين بدأت أعرف ما هو الحب حقا . لذلك لنقل « مرة أخرى » .

« فقط لو أتيح لك أن تعرف هذه الفتاة ! لن تسميها جميلة — فعظمتا وجنتيها بارزتان ، وهى نحيلة جدا ، ولكن أى حنو يفيض

من وجهها ، وأى روعة فى ابتسامتها ! ان صوتها تغريد . وهى لا تتحدث معى أبدا ، لذلك لا أستطيع أن أقول انى أعرفها حقا ، ومع ذلك فحين أكون قريبا منها أشعر أننى فى حضرة مخلوق نادر عجيب ، شديد الحكمة والسمو انها متدينة ، ولا تستطيع أن تتصور الى أى حد يؤثر ذلك فى نفسى ويسمو بها فى نظرى . وفى هذا الموضوع أنا مستعد لمناقشتك الى أبعد مدى . سأفرض أنك على حق ، فسر الأمر على طريقتك ، ومع ذلك فأنا أحبها حين تصلى فى الكنيسة . انها فتاة من بنات الأقاليم ، ولكنها تعلمت فى موسكو ، وهى تحب مدينتنا موسكو ، وترتدى أحدث أزياء موسكو ، ولهذا أيضا أحبها ، أحبها ، أحبها . أستطيع أن أراك وأنت تعقد حاجبيك وتنهض لتلقى محاضرة طويلة عن الحب ما هو ، ومن هو الشخص الذى يجب أن نحبه والشخص الذى يجب الا نحبه ، الخ ، الخ . ولكن يا عزيزى كوستيا ، قبل أن أحب أنا بنفسى ، كنت أنا الآخر أعرف بالضبط ما هو الحب ..

« شقيقتى تشكر لك تمنياتك . وكثـــيرا ما تتذكر كيف كانت تصحب الصغير كوستيا كوتشفوا الى الفصول التحضيرية ، وما زالت تسميك « كوستيا المسكين » لأنك ما زلت فى نظرها ذلك الطفـل الصغير اليتيم . وعلى ذلك ، فايها الطفل الصغير اليتيم المسكين ، أنا أحب . ولما كان الأمر سرا ، لذلك أرجوك الا تبوح بشىء لذلك « الشخص » الذى يهمه الأمر . وأعتقد أن المسألة ستسوى بطريقة مرضية ، أو ، كما يقول الخادم فى رواية تولستوى ، كل شىء سيصحح نفسه بنفسه » .

بعد أن انتهى الخطاب آوى لابتيف الى فراشه . وكان الارهاق يثقل عينيه ، ولكنه لسبب ما لم يستطع النوم ، وأعتقد أن ضجيج الشارع هو الذى حرمه النوم ، فقد كان يسمع القطعان وهى تساق

الى جوار البيت ، وصوت البوق المصنوع من قرن ثور ، وبعد ذلك بقليل دق ناقوس الكنيسة لصلاة الفجر . ثم سارت عربة متثاقلة بالقرب من المنزل ، وجاء بعدها صوت فلاحة فى طريقها الى السوق، ولم تكف العصافير عن شقشقتها المتصلة .

– ٢ –

كان يوما بهيجا مشرقا . وفى حوالى الســـاعة العاشرة قادوا نينا فيودروفنا ، وقــد ارتدت ثوبا بنيا ، ومشطت شعرها بأناقة ، الى حجرة الجلوس ، سارت فى الحجرة قليلا ، ثم وقفت أمام النافذة المفتوحة تبتسم ابتسامتها الكبيرة كابتسامة طفل . ان المرء حين ينظر اليها ، يتذكر ما قاله عنها مرة فنان اقليمى وكان رجلا مغرما بالخمر ، من أن وجهها كالصورة المقدسة ، وقد طلب منها أن تقف أمامه ليرسم صورة ليوم الاعتراف المقدس فى روسيا .

فجاء فى ذلك الصباح كان الجميع ـ الأطفال ، والخدم ، وشقيقها الكسى ، وحتى هى نفسها ـ واثقين تماما بأن صحتها ستتحسن . وأخذت الفتاتان الصغيرتان تجريان وراء خالهما ، وهما تضحكان بصوت مرتفع ، وعادت الحياة الى البيت من جديد .

وجاء الناس ليطمئنوا على صحتها ، وأحضروا معهم الفطـــائر المقدسة ، وقالوا انه أقيمت فى ذلك اليوم صلوات من أجلها فى معظم كنائس المدينة ، فقد كانت معروفة باحسانها ، وكان الناس يحبونها . كانت تقدم الاحسان بسخاء ، كشقيقها ألكسى ، الذى كان يمنح المال ببساطة ، دون أن يتوقف ليفكر ان كان من الحكمة اعطاؤه أم لا . وكانت نينا فيودروفنا تدفع مصاريف التعليم للطلبة المحتاجين وتقدم الشاى والسكر والمربى للنسوة العجائز ، وتجهز العـرائس المعوزات ، واذا وقعت صحيفة فى يدها فأول ما تبحث عنه فيهـا نداء يطلب المساعدة ، أو شكوى أدلى بها مكروب .

والآن أيضا تقبض يدها على حزمة من الأوراق حصل المحتاجون بموجبها على الطعام على حسابها ، وها هو البقال يطالب بماله . وقالت ، وهى لا تكاد تتبين خطها على الأوراق :

ــ « بالله ، ما أكثر ما أخذوه ! أليست لديهم ضمائر بالمرة ؟ تصور ! اثنان وثمانون روبل ! ماذا لو امتنعت عن الدفع ؟ » .

فقال لابتيف :

ــ « سأدفع له اليوم » .

ولكن نينا فيودروفنا عادت تقول باضطراب :

ــ « لا ، لا تفعل » .

ثم أضاف بصوت منخفض لـكيلا يسمع الخدم :

ــ « يكفى انى آخذ كل شهر ٢٥٠ روبل منك ومن فيودور . فليبارككما الله » .

فقال :

ــ « ولكنى أنا نفسى أنفق كل شهر ألفين وخمسمائة روبل . وأقول لك مرة أخرى يا عزيزتى ، ان من حقـــــك أن تنفقى مثلى ومثل فيودور . أرجوك أن تفهمى هذا وتريحينى . نحن ثلاثة ، وكل كوبك يخرج من أى منا هو من حقك أنت » .

ولكن نينا فيودروفنا لم تستطع أن تفهم ، وبدا من تعبير وجههــا انها مرتبكة فى مسألة حسابية معقدة . وكان عجزها عا ادراك ما يتعلق بالمسائل المالية يزعج لابتيف دائما . وكان يشك أيضا فى أن عليها ديونا خاصةتخجل من الاعتراف بها وتتسبب فى ايلامها .

فى تلك اللحظة سمعت على السلم أصوات أقدام وأنفاسا لاهثة . انه الطبيب ــ مضطرب الهندام كالعادة ويهمهم :

« رو ــ رو ــ رو ــ رو » .

ولكى يتجنب لابتيف مقابلته ، خرج عبر حجرة الطعام ، ثم هبط

الى شقته . انه لم يستطع أبدا أن يوثق علاقته بالطبيب بالقـــدر الكافى لكى يزوره فى منزله كثيرا ، فضلا عن أنه لم يكن يحتمل ذلك « الأحمق العجوز » كما يسميه بانوروف . ولهذا السبب كان لا يرى بوليا سيرجيفنا الا نادرا . وخطر بباله : الآن والأب ليس بالمنزل ، ماذا لو أخذ الى يوليا سيرجيفنا مظلتهـــا ؟ لا شك انه سيجدها وحدها ، وقفز قلبه فى صـــدره من السعادة . يجب أن يسرع ، يسرع !

***

أخذ المظلة ، وكل ما فيه يرتجف ، وطار اليها على أجنحة الحب . كان الجو فى الخارج حارا . وكانت هناك مجموعة من الصبية ــ أطفال من سكان المبانى المهدمة الملحقة التى ينوى الطبيب اصلاحها منذ سنوات ــ كانوا يلعبون الكرة وسط الحشائش والنباتات فى فناء الطبيب الواسع ، وكان الهواء يضج بصيحاتهم القوية . وفى ركن الفناء البعيد ، كانت يوليا سيرجيفنا واقفة الى جوار عتبة بيتها ، ترقب المباراة وقد ضمت يديها خلف ظهرها .

ناداها لابتيف قائلا :

ــ « صباح الخير ! » .

فالتفتت ، ولاحظ أن وجهها الذى تعود أن يراه باردا أو غير مبال ، أو مرهقا كما كان بالأمس ، قد اكتسبت حيوية وتورد كخدود الصبية المحيطين بها . وقالت وهى تتقدم للقائه :

ــ « أنظر ، لا يمكن أن ترى مثل هذه الألعاب الجميلة فى موسكو ، ولكن الأفنية هناك أصغر بكثير بطبيعة الحال ، وليس هناك مكان للجرى » .

ثم أضافت وهى تستدير لتنظر الى الأطفال :

« لقد ذهب أبى منذ قليل الى بيتكم » .

فأجابها لابتيف وهو يتأمل باعجاب شبابها الذى اكتشفه الآن ، وعنقها الأبيض الرشيق وقد زينته سلسلة ذهبية :

ــ « أعرف . لقد جئت لأراك أنت لا هو » .

ثم كرر قوله :

ــ « جئت لأراك أنت ، مظلتك ، طلبت أختى منى أن احضرها لك .

لقد نسيتها أمس » .

مدت يدها لتأخذ المظلة ، ولكنه فجأة ضمها الى صدره ، وقال بعاطفة ، وقد استسلم باندفاع لتلك السعادة الغريبة التى مارسها ليلة الأمس حين فتح المظلة :

ــ « أرجوك اسمحى لى بأن أحتفظ بها ، سوف أقدسها كذكرى لك ... لصداقتنا . ما أروعها ! » .

أجابته وقد احمر وجهها خجلا :

« ــ تستطيع أن تحتفظ بها ، ولكنها خالية من كل روعة » .

حدق فيها بوجه صامت ، وضاعت منه الكلمات ..

وبعد برهة من الصمت قالت :

ــ « ويلى ، لماذا أدعك فى الخارج تحت هذه الشمس المحرقة ؟ » ثم ضحكت وأضافت :

ــ « هيا بنا الى الداخل ..

ــ أخشى أن أعطلك ؟ » .

ودخلا البيت ، وأسرعت يوليا سيرجيفنا تصعد السلم ولثوبها الأبيض المنقوش بالأزهار حفيف مسموع ، ثم توقفت على السلم لتجيبه :

ــ مستحيل أن تعطلنى ، لأنى لا أفعل شيئا . كل يوم عطلة بالنسبة لى ، من الصباح الى المساء .

فقال وهو يصعد اليها :

ــ هذا شيء لا أستطيع أن أفهمه ، فقد نشأت كما تعلمين ، بين قوم يعملون كل يوم . يستوى فى ذلك الرجال والنساء .

سألته :

ــ « ولكن ماذا يحدث اذا لم يكن هناك ما يفعلونه ؟

ــ « يجب أن يرتب الانسان حياته على أساس أن العمل ضرورة . فبدون العمل لا يمكن أن تكون الحياة طاهرة ومرحة » .

وضم المظلة مرة أخرى ، ولدهشته ســـــمع نفسه يقول برقة وبصوت لم يكد يتعرف فيه على صوته :

ــ « لو وافقت على أن تكونى زوجتى فسأعطيك كل ما أملك . كل شيء .. ليس هناك شيء ، ولا تضحية الا وسأبذلها « .

فوجئت ونظرت اليه فى فزع ودهشة ، ثم قالت وقد شحب وجهها :

ــ « أوه ، لا ! هذا مستحيل . أؤكد لك . أرجو المعذرة » .

وجرت مسرعة على السلم ، ولثوبها حفيف مسموع ، واختفت خلف الباب .

تغيرت حالته النفسية بحدة كأنما خبا الضوء مع روحه . وأسرع الى خارج المنزل ، وهو يحترق فى نار الخجل والاحساس بالمذلة ، وقد سيطر عليه الاعتقاد بأنه أهين وأنه غير محبوب ، بل وكريه ، ومثير للاشمئزاز أيضا .

وبينما هو يسير تحت الشمس المحرقة فى طريق العـــودة الى البيت ، أخذ يسخر من نفسه وهو يتذكر تفاصيل اعترافه :

ــ « سأعطيك كل ما أملك ، سأعطى كل شيء ــ مثل أى تاجر ! وكأن هناك من يريد كل ما لديك ! » .

كل ما قاله حماقة مثيرة . لماذا كذب بقوله أنه نشأ وسط قوم

يعملون كل يوم ؟ ولماذا وعظ عن الحياة الطاهرة المرحة ؟ كل ذلك غباء ، وتفاهة ، وزيف ـ أو خداع زائف بأسلوب موسكو .

ولكن شيئا فشيئا تغيرت حالته النفسية الى نوع من اللامبالاة التامة شبيهة بما ينتاب المجرم بعد نطق الحكم ، أنه الآن يشكر الله على أن كل شيء قد انتهى وأنه قد تخلص من حالة الشك المؤلمة . لقد وضح الآن كل شيء ، لا سعادة له ، ولا آمال ، ولا أحلام . ولا حنين ، ولكى يتجنب ذلك الملل الذى يعذبه ، سوف يشغل نفسه بسعادة الآخرين . وقبل أن يفطن ، ستكون السن قد تقدمت به ، وسيستوى كل شيء . والآن لم يعد يعبأ بشيء ، وباستطاعته أن يزن الأمر كله دون عاطفة أو انفعال . ومع ذلك فهو يحس بوجهه ثقيلا ثقلا غريبا ، وبخاصة أسفل عينيه ، ويحس بجبهته مشدودة كأنها من المطاط . وكأن الدموع ستنفجر من عينيه الى الأمام ..

استلقى على سريره ضعيفا متهالكا ، ولم تمض خمس دقائق حتى راح فى سبات عميق ..

ـ ٣ ـ

أحدث طلب لابتيف الزواج دون توقع خيبة أمل عميقة فى نفس يوليا سيرجيفنا ، فهى لا تعرفه الا معرفة سطحية ، قابلته مصادفة . انه رجل ثرى ، وأحد أصحاب مؤسسة فيودور لابتيف وأولاده المشهورة فى موسكو ، جاد دائما ، وواضح الحذق ، شديد الاهتمام بصحة شقيقته . وقد اعتقدت انه لا يكاد يحس بوجودها ، وهى نفسها لم تكن لتكترث به ـ والآن اذا بهـــذا الطلب للزواج على السلم ، وتلك النظرة المشفقة المتعالية على وجهه ..

لقد اضطربت تماما لأن الأمر حدث فجأة ودون أى تمهيد ، ولأنه أستخدم كلمة « زوجة » ولأنها كان عليها أن ترفضه . انها لا تذكر ماذا قالت له ، ولكن الاحساس بالنفور ما زالت أصداؤه تتردد فى نفسها . انها لا تحبه ، فمظهره كمظهر البائع المتجول ، وليس فيه ما يثير أقل قدر من الاهتمام ، ولم يكن باستطاعتها أبدا أن تقبله . ولكنها لم تكن مرتاحة مع ذلك ..

قالت لنفسها بيأس وهى تلتفت الى الصورة المقدسة المعلقة فوق سريرها :

« ياالله ـ على السلم ، ودون حتى أن يدخل الحجرة ، بل ودون كلمة مجاملة ، وبهذا الأسلوب العجيب ! » .

***

ظلت وحيدة ، وأخذ قلقها يزداد مع مرور الوقت حتى وجدت نفسها فى حاجة الى أن تتحدث مع شخص ما ، فى حاجة الى أن

تتأكد من أن ما صنعته هو الصواب . ولكن لم يكن هناك من تتحدث معه . أمها ماتت منذ زمن بعيد ، وأبوها ليس بالرجل الذى تستطيع أن تحادثه فى أمر جاد . فنزواته وحساسيته المؤلمة واشاراته المبهمة كانت تزعجها ، فضلا عن أنه مهما كان الموضوع الذى تحادثه عنه فانه دائما يحول المناقشة الى نفسه . وكذلك لم تكن صريحة تماما فى صلواتها ، لأنها لم تكن تعرف بالضبط ما الذى تصلى من أجله ..

***

أدخلوا ابريق الشاى الكبير . كانت يوليا سيرجيفنا تبدو شديدة الشحوب ومرهقة ، وقد سيطر عليها احساس بالعجز . دخلت حجرة الطعام ومزجت الشاى – وهو واجبها اليومى – وملأت كوب أبيها . وكان سيرجى بوريستتش فى سترته الطويلة التى تصل الى ما تحت ركبتيه ، وشعره غير المشط ، ويداه داخل جيوبه ، يذرع حجرة الطعام كحيوان محبوس فى قفص . وبين الحين والآخر يتوقف أمام المائدة ليرشف من كوبه بصوت مزعج ثم يواصل خطواته وهو شارد الذهن كما هو ..

قالت يوليا سيرجيفنا :

« لابتيف عرض على الزواج اليوم » .

وأحمر وجهها ، فرمقها الطبيب بعينيه وبدا كمن لم يفهم وسألها :

« لابتيف عرض على الزواج اليوم » .

كان يحب ابنته ، ويدرك أنها ان عاجلا أو آجلا ستتزوج وتتركه، ولكنه كان يحاول الا يفكر فى الأمر . كان يفزع من مصيره المتوقع حين يعيش فى هذا البيت الكبير وحده ، وان لم يكن يعترف بذلك ، ولكنه كان مقتنعا بينه وبين نفسه أنه لو حدث ذلك فسيصاب ذات يوم بسكتة قلبية ..

قال وهو يهز كتفيه :

ــ « ما أشد سعادتى حقا ، أهنئك من صميم قلبى . أمامك الآن فرصة رائعة كى تتركينى . ومعك كل الحق . فلابد أن الحياة مع أب عجوز ، مخلوق مريض شبه مهووس ، شاقة جدا على شخص فى مقتبل العمر . معك الحق تماما . وكلما أسرعت بالتذمر ، أسرع الشيطان فى قبض روحى ، فتزداد بذلك سعادة الجميع . أهنئك يا عزيزتى .

ــ لقد رفضته » ..

أحس الدكتور براحة كبيرة لذلك ، ولكنه لم يستطع كبح جماح نفسه ، ومضى يقول :

« كثيراً ما أتساءل لماذا لم أوضع حتى الآن فى مستشفى للمجاذيب ، لماذا أرتدى هذه السترة بدلا من « جاكيت » بسيطة ؟ انى ما زلت أومن بالصدق والخير . أنا واحد من مثاليك المعتوهين ، أو ليس هذا جنونا فى عصرنا ؟ ما الذى أحصل عليه مقابل صدقى وأمانتى ؟ الناس يستغلوننى ويكادون يرجموننى بالأحجار . حتى أقرب الناس الى يحاول الركوب على رقبتى ، فما أحمقنى من عجوز أبله » ..

وقالت يوليا :

ــ الحديث معك مستحيل يا أبى !

ونهضت وغادرت المائدة مسرعة وذهبت الى حجرتها وقد اشتد بها الغضب . ما أكثر ما ظلمها . ولكنها سرعان ما شعرت بالحزن من أجله ، وحين أزف موعد ذهابه الى ناديه ، صحبته فى هبوطه الدرج ، وأغلقت خلفه الباب بنفسها .

كانت ليلة عاصفة مضطربة الجو اهتز الباب تحت ضغط الريح ، واشتد تيار الهواء عند مدخل البيت حتى كاد يطفىء شمعتها .

صعدت يوليا الى الدور العلوى ومرت بجميع حجراته ، ورسمت علامة الصليب فوق كل النوافذ والأبواب . عوت الريح وخيل اليها أنها تسمع وقع أقدام شخص يسير فوق السقف . ومر الوقت ببطء ، وأحست بالوحدة أكثر من أى وقت مضى .

***

سألت نفسها هل كانت مصيبة فى رفضها لابتيف لا لشىء الا لأن مظهره لا يعجبها . حقا ، هى لا تحبه ، والزواج منه معناه الوداع الأبدى لكل أحلامها ، ولما تخيلته عن السعادة والحياة الزوجية ، ولكن هل ستلتقى حتما بالرجل الذى تحلم به ؟ انها الآن فى الحادية والعشرين وليس فى المدينة رجال صالحون للزواج . فكرت فى كل من تعرفهم من الرجال ، موظفى الحكومة ، المدرسين ، الضباط ، فوجدت أن بعضهم قد تزوجوا بالفعل ، ويعيشون حياة مملة تافهة الى أبعد حد ، أما الآخرون ، فأغبياء لا لون لهم ، أو سيئوا السلوك. اما لابتيف فهو من أبناء موسكو ، وقد تخرج فى الجامعة ، ويتكلم باللغة الفرنسية ، ويعيش فى العاصمة حيث يوجد عدد كبير جدا من الناس الأذكياء المشهورين ، وحيث الحياة مرحة ، وحيث توجد كل أنواع المسارح الرائعة ، والسهرات الموسيقية ، والخيـــاطات الممتازات ، ومحال الحلوى .. الانجيل يقول يجب أن تحب الزوجة زوجها ، والروايا تتسرف فى تأكيد ذلك ، ولكن أليس من المحتمل أن يكون ذلك نوعا من المبالغة . الا يمكن أن يقوم زواج دون حب ؟ ألا يقول الناس ان الحب سرعان ما يختفى ولا تبقى سوى السعادة ، وأن هدف الزواج ليس الحب ، ولا السعادة ، ولكنه الواجب ، كتربية الأطفال ، وادارة البيت ، ونحو ذلك ، بل لعل الحب الذى ذكره الانجيل يقصد به الاحترام ، والصبر ، وحب الزوج كما يحب الانسان جاره .

وقبل أن تذهب يوليا الى فرشها قرأت صلواتها المسائية بعناية ، وركعت وهى تضغط بكفيها على صدرها وتحدق فى لهب الشمعة المشتعلة تحت الأيقونة ، وابتهلت قائلة :

ـ « ساعدينى أيتها الأم المقدسة ! ساعدينى ! آه يارب ! » .

وأخذت تتذكر كل العوانس المتقدمات فى السن اللائى التقت بهن ، مخلوقات تعسة يائسة يتحسرن بمرارة لأنهن رفضن عروضا للزواج ، الا يمكن أن تلاقى نفس المصير ؟ وربما كان من الأفضل أن تدخل ديرا للراهبات أو تصبح من اخوات الرحمة ؟

خلعت ملابسها واستلقت فى سريرها ، ورسمت علامة الصليب فى الهواء المحيط بها . وفى نفس اللحظة ارتفع صوت الجرس عاليا فى الصالة .

أحست برجفة مؤلمة تنتابها من أثر الصوت ، وقالت : « ياالله ! » وظلت مستلقية بلا حراك ، تفكر فى مدى سخف حياة الأقاليم وكآبتها والى أى حد هى مرهقة للأعصاب مع ذلك . دائما اما أن تتعرض للألم ، أو الفزع ، أو تفقد أعصابك ، أو تشعر بالذنب بسبب ما ، وفى النهاية تتمزق أعصابك حتى لتجد نفسك أحيانا مضطرا الى الاختباء تحت أغطية السرير .

***

بعد نصف ساعة دق الجرس مرة أخرى بصوت مرتفع وبلا توقف كالمرة السابقة . لابد أن الخدم نائمون ولم يسمعوا . أضاءت يوليا سيرجيفنا الشمعة وارتدت ملابسها بسرعة ، وهى ترتعد ، وقد تملكها الغضب على الخدم ، ولكنها حين خرجت الى الصالة وجدت الخادمة تغلق الباب بالفعل وقالت :

« ظننته السيد ، فاذا بها دعوة من مريض » .

عادت يوليا سيرجيفنا الى حجرتها ، وأخذت من الدولاب مجموعة

من أوراق اللعب ، وقالت لنفسها انها لو خلطت الاوراق جيدا ثم قطعتها ، فاذا كانت الورقة السفلى حمراء ، فان ذلك سيكون معناه « نعم » ، أى انها يجب أن تتزوج لابتيف ، اما ان كانت سوداء ، فالاجابة يجب أن تكون « لا » ، وكانت الورقة السفلى فى المجموعة هى العشرة السباتى الحمراء .

دفع هذا السكينة الى نفسها فاستغرقت فى النوم ، ولكن فى الصباح عاد الموقف يتأرجح من جديد بين « نعم » و « لا » . انها لو أرادت الآن لغيرت حياتها كلها . كانت مرهقة من التفكير فى الأمر الى درجة قريبة من المرض . ولكن ما كادت الساعة تجاوز الحادية عشرة حتى ارتدت ملابسها وذهبت لزيارة نينا فيودروفنا . كانت تريد رؤية لابتيف . لعله يبدو فى نظرها الآن أفضل مما كان ، ولعلها كانت مخطئة فى شأنه .

مضت فى طريقها ، تقاوم الريح ، وتقبض على قبعتها بكلتا يديها ، وقد ملأ التراب عينيها فأعجزها عن الرؤية .

- ٤ -

حين دخل لابتيف الى حجرة شقيقته وفوجىء بوجود يوليــــا سرجيفنا ، ملأه من جديد ذلك الاحساس المرير بالاذلال الذى عرفه أمس . واذا كانت بعد ما حدث تستطيع أن تحضر لزيارة شقيقته بمثل هذه الخفة معرضة نفسها لمقابلته ، فمعنى ذلك انها لا تحس بوجوده ، أو تعتبره أقل شأنا من أن يثير فيها كراهية . ولكنه حين صافحها لاحظ وجهها الشاحب ، والتراب تحت عينيها ، وأدرك من النظرة الحزينة المذنبة التى وجهتها اليه انها تعانى هى الأخرى .

لم تكن فى حالة طيبة . وبعد زيارة قصيرة ، لم تستغرق اكثر من عشر دقائق ، نهضت واستأذنت . وقالت للابتيف وهى فى طريقها للخروج :

« هل توصلنى الى البيت يا الكسى فيودورفيتش ؟ » .

سارا صامتين ، كل منهما يقبض على قبعته بيده ، وتأخر لابتيف خلفها بضع خطوات محاولا حمايتها من الريح . ولكنها حين تحول الى الشارع الجانبى خفت حدة الريح فسارا جنبا الى جنب .

وبدأت يوليا تقول :

« كنت قاسية معك أمس ، سامحنى » .

وكان صوتها يرتجف وكأنها توشك على البكاء . ومضت تقول :

ـ آه ، ما أشد تعاستى ! لم أستطع النوم طوال الليل .

وقال لابتيف دون أن ينظر اليها :

ـ « حقا ؟ لقد نمت جيدا ، ولكن هذا لا يعنى انى سعيد . لقد تحطمت حياتى . ومنذ أمس أحس وكأنى تسممت . أسوأ ما فى الأمر انتهى أمس ، واليوم أشعر أنى لم أعد مقيدا ، وعلى ذلك أستطيع أن أكلمك بصراحة . أنا أحبك أكثر من أختى ، وأكثر من أمى .. أستطيع أن أعيش بدون أختى وبدون أمى ، ولكن بدونك تصبح حياتى بلا معنى ، ولا أستطيع .. » .

وكالعادة ، خمن أهدافها . كان يدرك أنها طلبت منه توصيلها للبيت لأنها تريد أن تواصل حديث الأمس وأنها الآن تقوده الى بيتها ولكن ما الذى يمكن أن تضيفه لرفضها ؟ ماذا دبرت الآن ؟ أحس من نظراتها ، وابتسامتها ، بل من الطريقة التى تحمل بها راسها وكتفيها وهى تسير الى جانبه ، أنها ما زالت لا تحبه . ماذا ، اذن ، يمكن أن تقول له ؟

كان الدكتور سيرجى يوريستتش فى البيت .

وحين رأى لابتيف قال وهو يخلط اسمه باسم العائلة :

« فيودور الكسيتش . تفضل ، مرحبا بك . أنا سعيد جدا لرؤيتك » .

لم يحدث أن رحب به الدكتور بمثل هذه الحرارة من قبل ، لذلك استنتج لابتيف أنه قد علم بأمر طلب الزواج ، وضايقه ذلك . وها هو ذا يجلس فى حجرة استقبال الدكتور ، وهى حجرة غريبة ، ذات اثاث رث سقيم الذوق ، ورسوم رديئة ، تبدو رغم ضخامة مظلة مصباحها ومقاعدها الوثيرة أقرب للحظيرة الشاسعة منها الى حجرة الجلوس ، انها حجرة من طراز لا يمكن أن يشعر بالراحة فيه الا شخص من طراز الدكتور . أما الحجرة المجاورة لها فتكاد تكون ضعفها فى الحجم ، ويسمونها الصالة ، وهى لا تحتوى الا على مقاعد مصفوفة الى جوار الحائط كما لو كانت فصلا فى مدرسة للرقص .

وبينما كان لابتيف جالسا هناك يحدث الطبيب عن شقيقته ، كان يشعر بالضيق لذلك الخاطر غير المريح وهو أن يوليا سيرجيفنا لم تحضر لزيارة شقيقته نينا ولم تحضره الى هنا الا لتخبره بأنها غيرت رأيها . وقال لنفسه ، آه ما أفظع ذلك . ولكن الأسوأ من ذلك معرفته بأن مثل هذا الشك قد خطر بباله . تصور الأب وابنته جالسين فى ساعة متأخرة من الليل يناقشان الأمر باهتمام ، بل ويتجادلان حوله ، ثم يتفقان فى النهاية على ان يوليا كانت حمقاء حين رفضت مثل ذلك الرجل الثرى . بل لقد كان باستطاعته أن يسمع الكلمات التى يقولها الآباء عادة فى مثل هذه المناسبات .

« حقا ، أنت لا تحبينه ، ولكن فكرى فى كل المزايا التى ستستطيعين تحقيقها » .

نهض الدكتور ليقوم بجولاته ، وكان لابتيف على وشك الذهاب معه ، ولكن يوليا سيرجيفنا قالت :

« أرجوك ، لا تذهب » .

لقد انهارت ، وأكدت لنفسها بتعاسة ان رفض رجل كريم مهذب يحبها لا لشىء الا لأنه لا يعجبها ، وبخاصة اذا كان هذا الزواج سيتيح لها الفرصة لتغيير هذه الحياة السخيفة الكئيبة التى تحياها، وعدم جدوى وجودها ، فى الوقت الذى بدأ فيه شبابها يولى والمستقبل لا يلوح بحياة أفضل ، الرفض فى مثل هذه الظروف جنون ، ونزوة حمقاء ، لابد أن الله سيعاقبها عليها .

حين اختفى وقع أقدام الدكتور ، التفتت يوليا فجأة الى لابتيف ووجهها شديد الشحوب ، وقالت فى صوت حاسم :

ـ « الكسى فيودوريتش ، لقد فكرت فى طلبك وقتا طويلا أمس .. وقد قررت قبوله » .

انحنى لابتيف وقبل يدها ، وضغطت بشفتيها الباردتين بلا

احساس على جبهته . كان يحس ان هذا الاعلان للحب ينقصه أهم شيء ـ حبها وأن فى الأمر كثيرا من الزيف البشع ، أراد أن يبكى ، أن يجرى هاربا ، أن يرحل على الفور الى موسكو ، ولكنها كانت واقفة هناك قريبة منه جدا ، حتى لقد غلبته العاطفة على أمره فجأة ، وتنبه الى أنه قد فات أوان التفكير الآن ، فضمها اليه ، وهو يتمتم بكلمات الحب وقبل عنقها ، ثم وجنتها وشعرها .

ابتعدت يوليا ناحية النافذة ، وقد نبهتها هذه القبلات ، وكان كل منهما قد بدأ يندم على ما قاله ويسأل نفسه فى حيرة : « لماذا حدث هذا ؟ » .

وقالت يوليا وقد شبكت يديها فى يأس :

ـ « فقط لو علمت كم أنا تعسة ! » .

فسألها وهو يقترب منها وقد شبك يديه هو الآخر :

ـ ولكن لماذا ؟ ما سبب ذلك يا عزيزتى ، بالله عليك اخبرينى بالحقيقة ، أتوسل اليك ، لا شيء غير الحقيقة ؟ » .

أجابت وهى تغتصب ابتسامة :

ـ « لا شيء ، أعدك أن أكون لك زوجة مخلصة وفية . تعال هذا المساء أرجوك »

***

حين جلس فيما بعد مع شقيقته يقرأ لها رواية تاريخية ، تذكر ما حدث وآلمه أن يستجيب لعاطفته بمثل هذا الأسلوب الرخيص ، انها لا تحبه ، ومع ذلك فقد وافقت على الزواج منه ـ لا شك أنها قبلت بسبب ثرائه ، فضلت فيه أقل ما يقدره من نفسه ، ومن المحتمل وهى الفتاة الصغيرة الطاهرة المؤمنة بالله ، أن ماله لم يخطر ببالها بالمرة ، ولكنها مع ذلك لا تحبه ، لا تحبه ، ومن هنا لابد أن لديها سببا عمليا ـ ربما كان غامضا وغير محدد ، ولكنه سبب عملى

رغم ذلك ـ للرغبة فى الزواج به . ان ادعاء الطبقة المتوسطة الواضح في بيت الدكتور ، والدكتور نفسه ، انه وضيع ، وهو بحماقته اللزجة أشبه ما يكون بشخصية « جاسبر » فى رواية « أجراس كورنفيل » كل ذلك يثير اشمئزازه ، بل ان اسم يوليا نفسه يبدو الآن سوقيا فى أذنه . سوف يقفان أمام مذبح الكنيسة ، وكل منهما غريب تماما عن الآخر ، وهى خالية من اى عاطفة نحوه ، وكأن الزواج من تدبير خاطئة .

ان عزاءه الوحيد الآن ، وهو أمر عادى كالزواج نفسه ، أن آلاف الناس صنعوا نفس الشيء ، وان يوليا مع الوقت ، وحين تألفه أكثر ، فمن المحتمل أن تستطيع أن تحبه .

وقال وهو يغلق الكتاب ضاحكا :

ـ « روميو وجولييت ! نينا . انا روميو . بوسعك أن تهنئينى . لقد خطبت يوليا سيرجيفنا اليوم » .

ظنته نينا فيودروفنا يمزح ، ولكنها حينما رأت أنه جاد شرعت فى البكاء . لقد ازعجها الخبر . قالت :

ـ « أظن أننى يجب أن أهنئك . ولكن أليس الأمر مفاجئا ؟

ـ لا ، ليس مفاجئا . لقد بدأ منذ مارس ، كل ما فى الأمر انك لم تلاحظى شيئا .. لقد أحببتها فى مارس حين رأيتها هنا فى حجرتك .

وقالت نينا فيودروفنا بعد قليل :

ـ « ظننتك ستتزوج فتاة من موسكو . فتاة من بيئتنا ، فستكون أكثر بساطة . ولكن سعادتك هى التى تهم يا الكسى . ان زوجى جريجورى نيكولافيتش لم يحبنى أبدا ، وبوسعك أن ترى بنفسك كيف نعيش . اما انت فأى امراة تستطيع ان تحبك ، فانت كريم وماهر ، ولكن يوليا سيدة محترمة ، لقد تعلمت فى مدرسة

عامة ، ولكن الطيبة والذكاء لا يكفيان وحدهما . انها صغيرة ، وأنت لم تعد فى مثل شبابها يا اليوشا ، كما أنك لست وسيما » .

ولكى تخفف من وقع الكلمات الأخيرة ربتت على خده وقالت :

ـ « لست وسيما ، ولكنك طيب جدا » .

واشتد انفعالها الى درجة دفعت حمرة خفيفة الى وجنتيها . هل من الصواب أن تبارك اليوشا ؟ على كل حال ، هى شقيقته الكبرى ، وهى تحتل مكان والدته . حاولت أن تقنع أخاها الحزين أن الزفاف ينبغى أن يكون رائعـــا ، وفى حفل مرح يقرن اسمه بالتوقير .

***

بدأ لابتيف يزور أسرة بيلافين ، باعتباره عريس المستقبل ، ثلاث أو أربع مرات كل يوم ، حتى لم يعد لديه وقت يريح فيه ساشا من قراءة الروايات التاريخيـــة لأمهـــا . وكانت يوليا تستقبله فى حجرتيها الخاصتين فى مؤخرة البيت التى تبعد كثيرا جدا عن حجرة الجلوس ومكتب أبيها . وكان يحب هاتين الحجرتين ، يحب الحيطان الداكنة ، والأيقونات فى الركن ، ورائحة العطور الثمينة وزيت مصباح الأيقونة . كان ثمة ستار يخفى سرير يوليا ومائدة زينتها ، وكانت أبواب صوان الكتب محددة بقماش أخضر ، والأرض مغطاة بأبسطة سميكة من الصعب أن يسمع صوت لوقع أقدامها عليها ـ وقد استدل من ذلك على أنها ذات طبيعة متحفظة ، وانها ترغب فى حياة هادئة مسالمة منعزلة .

وكانت لا تزال تعامل وكأنها مراهقة ، فليس لها نقود خاصة بها . وكثيرا ما حدث أثناء سيرها بالخارج أن تكتشف لخيبة أملها أنه ليس معها ولا كوبك واحد . كان أبوها يعطيها مبالغ صغيرة لشراء الملابس والكتب ، بحيث لا تتجاوز مائة روبل فى العام . وكان هو

فى عسر من أمره بالرغم من عمله المعقول . كان يلعب الورق كل مساء فى ناديه ويخسر بصفة مستمرة ، وفضلا عن ذلك كان يشترى المنازل عن طريق جمعيـــة القروض المشتركة ، ويؤجرها لسكان لا يدفعون قيمة ايجارها بصفة منتظمة . وكان يصر ، رغم ذلك ، على ان الصفقة مربحة الى أبعد حد . والمنزل الذى يسكنه هو وابنته مرهون ، والنقود استغلها فى شراء قطعة من الارض الخالية بدأ يبنى عليها بالفعل منزلا من دورين بقصد رهنه هو الآخر .

***

ان لابتيف يعيش الآن غارقا فى نوع من الضباب ، لكأنه قد أصبح انسانا آخر ، ويعمل أشياء كثيرة ما كان من قبل يحلم بأن يعملها . فقد ذهب ثلاث مرات مع الدكتور الى ناديه ، حيث تعشى معه وقدم له نقودا لمشروعه الخاص بالبناء . ودعاه بانوروف ذات يوم على الغداء ، وقبل لابتيف دون تفكير . واستقبلته امرأة طويلة نحيلة فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ذات شـــعر رمادى وحاجبين سوداوين ، ولم تكن تبدو روسية . كان وجههـــا مغطى بطبقة من المساحين ، وابتسمت ابتسامة لزجة ، وصافحته بهزة من يدها جعلت السوار على ذراعها البيضاء يحدث صوتا رنانا . وخطر للابتيف أنها تبتسم بهذه الطريقة لأنها كانت تعسة وتريد أن تخفى هذه الحقيقة عن نفسها وعن الآخرين . ورأى فتاتين صغيرتين فى الخـــامسة والثالثة من عمريهما تشبهان ساشا .

كان الغداء يتكون من حساء اللبن ، ولحم بقرى بارد بالكرات ، والحلوى شكولاته ، وكلها مسطحة بلا طعم ، ولكن المائدة كانت تلمع بالشوك الذهبية ، وزجاجتين أنيقتين لعصير الطماطم والتوابل ، واناء صغير عليه رسم بديع ، ووعاء ذهبى للفلفل .

ولم يفطن لابتيف الى أن حضوره الى هنا أبعد ما يكون عن اللياقة

الا بعد أن انتهى من شرب حساء اللبن . كان من الواضح أن السيدة فى غاية الحرج ، وكانت تبتسم بصفة مستمرة مظهـــرة أسنانها البيضاء ، فى حين كان بانوروف يقدم شرحا علميا للحب وأصله . قال موجها حديثه الى زوجته باللغة الفرنسية :

« موضوع البحث هو ظاهرة كهربية خالصة . فجلد كل منا يحوى خلايا ميكروسكوبية تولد تيارا كهربيا . فاذا حدث وقابلت شخصا موازية مع تياراتك فالنتيجة هى الحب » .

وحين عاد لابتيف الى البيت وسألته شقيقته أين كان ، أحس بالخجل ولم يحر جوابا .

***

طوال الأسابيع السابقة على الزفاف كان لابتيف مدركا لزيف موقفه . ان حبه يزداد يوما بعد يوم ، وهو يعتقد ان يوليا مخلوق شاعرى رائع ، ولكن تبقى مع ذلك هذه الحقيقة وهى أنها لا تبادله حبه ، وانها تبيع نفسها له . وفى بعض الاحيان كانت هذه الفكرة تدفعه الى اليأس ، وأكثر من مرة كان على وشك ان يترك الموضوع نهائيا . لم يعد بعد قادرا على النوم ، وكان يظل مستلقيا فى سريره وهو مستيقظ طوال الليل ، يفكر . ماذا سيقول لتلك السيدة فى موسكو التى يشير اليها فى خطاباته الى أصدقائه بذلك « الشخص » حينما يقابلها بعد الزواج ؟ وماذا سيكون راى أبيه وأخيه فى زواجه من يوليا ، وهما من حيث صعوبة التفاهم معها أ كان يخشى أن يكون أبوه فظا فى معاملته ليوليا فى أول لقاء معها . أما بالنسبة لشقيقه فيودور ، فثمة شىء غريب يحدث له مؤخرا . انه يكتب خطابات طويلة عن اهمية الصحة الجيدة ، وتأثير المرض على العقل ، وعن جو الدين ، ولكنه لا يشير بكلمة الى موسكو أو المؤسسة . وقـد

أزعجت هذه الخطابات لابتيف ، وبدا له ان شخصية أخيه آخذة فى التغير الى اسوأ .

***

تزوجا فى سبتمبر فى كنيسة بطرس وبولس بعد الصلاة ، وفى نفس اليوم رحل الزوجان الى موسكو . وحين ذهب لابتيف وزوجته التى لم تعد بعد فتاة صغيرة فى ثوبها الأسود وملحقاته ، ليودعا نينا فيودروفنا ، انفعل وجه المرأة المريضة وان ظلت عيناها جافتين تماما وهى تقول :

« اذا مت فخذى الفتاتين الصغيرتين لتعيشا معك » .

وأجابت يوليا سيرجيفنا وقد بدأت شـفتاها تختلجان وكذلك جفناها :

« آه ، سأفعل ، أعدك بذلك » .

وقال لابتيف وهو فى غاية التأثر .

« سأحضر لرؤيتك فى أكتوبر ، من الله عليك بالشـفاء يا أعز الناس » .

سافرا فى مقصورة خاصة . وكلاهما كان يشـعر بالتعاسة والقلق . جلست فى ركن ، وقبعتها فوق رأسها تتظاهر بالنعاس ، واستلقى هو على الوسادة فى مواجهتها تدور فى رأسه مجموعة من الأفكار المزعجة : عن أبيه ، وعن « ذلك الشخص » ، وعما اذا كان مسكنه فى موسكو سيعجب يوليا أو لا . ثم نظر الى زوجته التى لا تحبه ، وهو يقول لنفسه فى يأس :

« لماذا حدث هذا ؟ » .

ـ ٥ ـ

كانت اسرة لابتيف فى موسكو تعمل فى تجارة الاقمشة بالجملة ، وتتعامل فى مختلف أنواع الشرائط والمنسوجات وأقطان اشغال الابرة ، والأزرار ، والبضائع المشابهة . وكانت مبيعاتهم تصل فى السنة الى مليونى روبل ، اما مقدار صافى الأرباح فلم يكن أحد يعرفه باستثناء الرجل العجوز . وكان ابناه والبائعون يقدرونه بما يقرب من ثلاثمائة ألف روبل ، ويقولون أنه من الممكن أن يزيد مقدار مائة ألف لو أن العجوز كف عن « تبذير المال ذات اليمين وذات اليسار » ، أو بكلمات أخرى لو أنه امتنع عن البيع بالنسيئة بمثل هذا الاسراف. ففى خلال السنوات العشر الماضية تجمعت لدى المتجر ايصالات قيمتها مليون روبل أصبح الحصول عليها أمرا ميئوسا منه ، وكلما أثير الموضوع كان رئيس الكتبة يعلق بدهاء ، وهو يغمز بعينه فى خبث ، قائلا :

« النتائج النفسية لهذا القرن » .

كانت العمليات الرئيسية تتم فى سوق المدينة ، فيما يطلقون عليه اسم المخزن ، تصل اليه عن طريق فناء كئيب تفـــوح منه رائحة الخيش ، ويتردد فيه وقع حوافر الجياد ، وثمة باب متواضع مدعم بالحديد يؤدى من الفناء الى حجرة ذات نافذة واحدة منحوتة ، وحوائط عليها بقع من فعل الرطوبة ، وتخطيطات بالفحم الاسود ، والى اليسار حجرة أخرى ، وهى المكتب ، وكانت أكبر وأنظف ،

وفيها فرن حديدى ، ومائدتان ، ولكن نافذتها أشبه بطاقة السجن هى الأخرى . وفى هذه الحجرة سلم حجرى ضيق يؤدى الى الدور الأعلى حيث مقر العمل الرئيسى . وهذه الحجـــرة كانت متسعة فعلا ، ولكن الكآبة الغالبة عليهــــا ، والسقف المنخفض ، وأكوام العلب والحزم ، والناس الذين يسرعون فيها جيئة وذهابا ، كل ذلك جعلها تبدو مقبضة كحجرتى الدور الأرضى . كانت البضائع مكدسة على الأرفف فى حزم ولفافات وصناديق من الورق المقوى ، ولولا أن بعض قطع القطن القرمزى ، أو شرابة ، أو قطعة شريط ، تطل من ثقوب لفافات الورق لمــا استطاع أن يخمن نوع البضـــائع التى تباع هنا .

وكان من الصعب أن تتصور ان ثروات تصنع من هذه اللفافات المهوشة والصناديق المكومة ، وأن ما يقرب من خمسين شخصا ، باستثناء الزبائن ، يظلون مشغولين بأمرها كل يوم .

حين حضر لابتيف الى المتجر ظهـــــر اليوم التالى لعودته الى موسكو ، كان العمال يحزمون البضاعة ويحدثون ضجيجا بمطارقهم ، فلم يستطع أحد ممن فى حجرة الدور الأرضى أو فى المكتب أن يحس بدخوله ، وكذلك لم يلتفت اليه رجل البريد الذى كان يهبط من الدور الأعلى حاملا حزمة من الرسائل وهو متجهم من الضجيج .

وكان أول من قابله فى الدور العاوى شقيقه فيودور الذى يشبهه الى درجة كبيرة حتى كان الكثيرون يعتقدون أنهما توأمان . وكان هذا التشابه يذكر لابتيف بصفة مستمرة بحقيقة مظهره ، والآن حين رأى ذلك الرجل الكئيب السوقى المظهر ، القصير القامة ، الأحمر الخدين ، ذى الشعر الخفيف والعجز الضيق المنخفض ، حين رأى لابتيف ذلك سأل نفسه : « ترى هل أبدو هكذا حقا ؟ » .

قال فيودور وهو يقبل شقيقه ويضغط على يده :

ـ أنا سعيد برؤيتك . لقد ظللت أنتظـــرك كل يوم يا صديقى العزيز . كان الفضول يقتلنى منذ كتبت الى انك ستتزوج . وقــد افتقدتك كثيرا أيضا ـ لقد مضى الآن نصف عام منـــذ رأيتك آخر مرة . حسنا ، ما الأخبار ؟ كيف حال نينا ؟ سيئة ؟ سيئة جدا ؟

ـ نعم ، سيئة جدا .

وقال فيودور وهو يتنهد :

ـ انها ارادة الله . والآن حدثنى عن زوجتك . هى جميلة على ما أعتقد ؟ انى مغرم بها فعلا ، فهى شقيقتى الصغرى الآن . وسوف أساعدك فى اعزازها .

ولمح لابتيف ذلك الظهر العريض المنحنى ، ظهـــر أبيه فيودور ستبانيتش . كان الرجل جالسا على مقعد صغير أمام منصة البيع المنخفضة يتحدث الى زبون ، وصاح فيودور :

ـ « أبى ، أنظـر ماذا أرسل الله الـكريم الينا . لقـــد عاد الـكسى ! » .

كان فيودور ستبانيتش رجلا طويلا متين البنيان ، يبدو قويا فى صحة جيدة بالرغم من سنواته الثمانين وما فى وجهه من تجاعيد . وكان يتحدث بصوت غليظ عال يصدر من صدره العريض وكأنه صادر من برميل . كان حليقا الا من شارب عسكرى صغير ، وكان يدخن السيجار . ولما كان يشعر بالحرارة بصفة مستمرة ، فهو يرتدى دائما ، وفى كل فصول السنة ، سترة مفتوحة من الكتان . ومنذ فترة قريبة أجرى عملية انفصال الشـــبكية فى عينيه ، فضعف بصره ، ولم يعد يدير المتجر ، بل خصص نفسه للثرثرة مع الزبائن واحتساء الشاى مع المربى .

انحنى لابتيف وقبل يد أبيه ثم شفتيه . وقال العجوز :

ـ « مضى زمن طويل منذ رأيناك لآخر مرة بابنى . زمن طويل

حقا . أظنك تريدنى أن أهنئك على زواجك . حسن جـدا ، أنا أهنئك » .

ورفع رأسه فانحنى لابتيف مرة أخرى وقبله . وسأل العجوز :

ــ « هل أحضرت السيدة الشابة معك ؟ » .

ودون أن ينتظر الاجابة ، واصل حديثه وهو يلتفت الى الزبون :

ــ « أبى العزيز ، هذا لكى أحيطك علما بأنى تزوجت فلانة بنت فلان . ان أحدا لا يحتاج اليوم الى نصيحة الأب العزيز ولا بركته . لقد أصبح الناس الآن فى منتهى الذكاء . حين تزوجت كنت قد جاوزت الأربعين ، ومع ذلك فقد ركعت على ركبتى أمام أبى وطلبت نصحه . الآن انتهى كل ذلك » .

كان العجوز سعيدا برؤية ولده ، ولكنه كان يحس أنه ليس من الصواب أن يبالغ فى تقدير قيمته ، أو يظهر سعادته بأى صورة من الصور . وكان لوقع صوته ، ولأسلوبه فى الحديث ، وقوله « السيدة الشابة » نفس الأثر المحزن الذى كانت تحدثه دائما فى لابتيف . كل شىء هنا يذكره بتلك الأيام التى كان يجلد فيها ويعيش على الخبز والماء ، وكان يعلم أن الصبية ما زالوا يجلدون ويضربون هنا ، وان هؤلاء الصبية أنفسهم حين يكبرون سيسيئون معاملة الآخرين . يكفيه أن يبقى فى المخزن خمس دقائق ليشعر أنه معرض فى أية لحظة للوم أو للضرب فوق أذنه .

وقال فيودور وهو يضرب الزبون على ظهره :

ــ « هاك يا أليوشا ، دعنى أقدمك الى وكيلنا فى تامبوف ، جريجورى تيموفيتش . انه نموذج للشباب الحديث : تجاوز الخمسين ، ووالد لأطفال صغار » .

وضحك كتبة المبيعات . وكذلك الزبون ، وهو عجوز نحيف

شاحب الوجه ، ضحك هو الآخر . وعلق رئيس الكتبة من خلف مكتب البيع :

« ظواهر الطبيعة الخارقة . كل ما يذهب مقدر له أن يعود » .

كان رئيس الكتبة رجلا طويلا فى حوالى الخمسين من عمره ، ذا لحية داكنة ، ويرتدى نظارات ، ويضع قلما خلف أذنه ، وكان من عادته أن يعبر عن نفسه بأغمض التعبيرات وأبعد التلميحات على الفهم ، ويبتسم بخبث ليؤكد دهاء تعليقاته . وكان مغرما باستخدام تعبيرات مدرسية يفسرها على هواه ليجعل معانيه غامضة غير مفهومة، بل كان يستخدم كلمات عادية بمعان غريبة ، كعبارة « بالاضافة الى ذلك » على سبيل المثال . فكلما قرر حقيقة مكونة من عدة فروع ، مد ذراعه اليمنى وقال « وبالاضافة الى ذلك ! » .

والمدهش فى الأمر أن كتبة الحسابات الآخرين والزبائن أيضا ، كانوا يفهمونه بسهولة ، كان اسمه بوشتاكين ، وهو من أهل كاشيرا . وقد شرع يقول على سبيل تهنئة لابتيف :

ــ « لقد قمت بعمل مجيد من أعمال الشجاعة ، أما فيما يتعلق بقلب المراة فهو مثل شاميل ! » .

وثمة شخصية أخرى هامة بالمخزن ، وهى ماكيتشيف ، وهو رجل قوى مكتنز الجسم ، تحيط برأسه الأصلع خصلات من الشعر الأشقر ، وسالفان من الجانبين . وقد تقدم نحو لابتيف وقال فى صوت خفيض يفيض بالاحترام :

ــ « يشرفنى يا سيدى أن أهنئك .. لقد استجاب الله لدعوات والديك المبجلين . المجد لله يا سيدى » .

بعد ذلك تقدم بقية الكتبة واحدا اثر الآخر ، ليهنئوا السيد الشاب . وكانوا جميعا يرتدون ثيابا من أحدث طراز ويبدون فى غاية الاحترام وحسن التربية . كانوا يؤكدون نطقهم لواو المد ،

ولا يعطشون الجيم ، ولما كانت خطتهم القصيرة التى تفوهوا بها مليئة بحروف السين الهامسة بكثرة فقد بدت تهنئاتهم قريبة من أزيز سوط فى الهواء .

وسرعان ما أحس لابتيف بالضيق ورغب فى العودة الى البيت ، ولكن كان عليه أن يبقى ساعتين على الأقل محافظة على المظاهر . غادر مكتب البيع ليحادث ماكيتشيف ، ويسأله عما اذا كانوا قد اجتازوا صيفا ناجحا ، وهل هناك أخبار جديدة ، وقد أجابه الأخير باحترام وهو خافض العينين . وقدم غلام قصير الشعر ، يرتدى قميصا رماديا ، فنجان شاى دون طبق للابتيف ، وبعد قليل اصطدم صبى آخر بصندوق أثناء مروره وكاد يسقط ، وفى الحال التفت اليه ماكيتشيف الهادىء وقد اكفهر وجهه وصرخ فيه بعنف :

ـ « انظر أين تضع قدميك ! » .

كان صغار موظفى البيع سعداء لأن سيدهم الصغير قد تزوج وعاد الى المدينة . وكانوا يرمقونه بحب واهتمام ، وكلما مر به واحد منهم حاول أن يقول شيئا سارا ومحترما فى الوقت نفسه . ولكن لابتيف كان يعتقد أن كل ذلك غير مخلص ، وأنهم يتملقونه لا لشىء الا لأنهم يخافونه . ولم يكن باستطاعته أن ينسى كيف انتابت أحد الموظفين منذ خمسة عشر عاما نوبة عصبية فجـــرى فى الشارع بملابسه الداخلية ، وظل يهز قبعته نحو نوافذ أسياده ويسبهم . وحينما عاد الى صوابه ، وجد الجميع متعة خاصة فى تذكيره كيف كان يصيح فى أسياده ويسميهم « استقلاليين » بدلا من استغلاليين .

***

كان أسلوب أسرة لابتيف فى معاملة موظفيهم حديث السوق كلها منذ زمن بعيد ، وأسوأ ما فيها أنه كان ثمة شىء آسيوى فى معاملة ستيبانيتش العجوز لهم ، فأولا ، لم يكن أحد يعلم كم يدفع لموظفيه

الأثيرين بوشتاكين وماكيتشيف ، وكانا يتقاضيان أكثر من ثلاثة آلاف فى السنة بما فى ذلك المكافآت التشجيعية ، ولكنه كان يدع الناس يعتقدون أنه يدفع لهما سبعة آلاف ، وكانت المكافآت توزع كل عام على جميع الموظفين ، ولكن بصفة سرية — حتى يقول كل موظف مدفوعا بالكرامة انه اخذ أكثر مما أعطى بالفعل ، ولم يكن المساعد يعرف متى يرقى ، وكذلك لا يعرف الكاتب ان كان السيد راضيا عنه أم لا .

لم يكن هناك شيء ممنوع صراحة ، ومن ثم فلم يكن أحد يعرف ما المسموح به بالضبط . فلم يكن الزواج محظورا عليهم ، ولكنهم لم يتزوجوا خشية أن يغضبوا سيدهم . وكان من المسموح أن يكون لهم أصدقاء ، وأن يخرجوا للزيارة ، ولكن البوابة كانت تغلق فى التاسعة ، وفى الصباح لكى يتأكد السيد من أنهم لا يسكرون ، كان يستدعيهم واحدا واحدا ويأمرهم بأن يتنفسوا فى وجهه .

وفى كل احتفال من احتفالات الكنيسة كان ينتظر منهم أن يذهبوا الى الصلاة المبكرة ، ويقفوا فى الكنيسة حتى يراهم سيدهم . وفى عيد ميلاد السيد أو أى فرد من أسرته ، وفى المناسبات الأخرى ، كان ينتظر من الموظفين أن يكتتبوا معا ويقدموا كعكة أو ألبوم صور . كانوا يعيشون فى الدور الأرضى فى طرف البيت ببياتنيتسكايا ، كل ثلاثة أو أربعة فى حجرة ، ويأكلون معا فى طبق مشترك ، بالرغم من وجود اطباق لكل منهم . ولو حدث وحضر واحد من أسيادهم وهم يأكلون كانوا يقفون جميعا .

وكان لابتيف يدرك منذ زمن بعيد أن أولئك الذين تشبعوا بتعاليم العجوز هم وحدهم الذين كانوا يعتبرونه حقا مصدر نعمتهم ، فى حين أن الباقين كانوا يعتبرونه عدوهم بلا شك .

وبعد أن غاب ستة أشهر لم يلحظ أى تغير الى أفضل ، بل الواقع أن ثمة عنصرا جديدا لا يبشر بخير . فأخوه فيودور الذى كان من قبل هادئا مفكرا شديد المهارة ، أصبح الآن يسير منهمكا فى المحل واضعا قلما خلف أذنه ، وقد بدا عليه الانشغال الشديد ، يضرب الزبائن على ظهورهم وينـادى الموظفين « يا أصـدقاء » . كان من الواضح انه يؤدى دورا ، حتى لقد أصبح من الصعب على الكسى أن يتعرف عليه .

وكان صوت العجوز يفرقع بصفة مستمرة . ولما لم يكن لديه شيء أفضل يفعله ، فقد كان يسلى نفسه بالقاء محاضرات على زبائنه كيف يعيشون وكيف يتصرفون فى شئونهم ، ويضع نفســه مثالا يحتذى . وقد ظل لابتيف يسمع هذه النغمة الفخور الصادرة عن النفوذ الواسع عشر سنوات ، بل خمس عشرة ، بل عشرين سنة . كان العجوز يعبد نفسه . وحين تنصت اليه تظن انه جعل زوجته الأخيرة ، واقرباءها غاية فى السعادة ، وانه أسعد أبناءه وأحسن الى موظفيه ، وانه قدم بالفعل للشارع كله ، ولكل معارفه ما يدعوهم للاعتراف بفضله الى الأبد . كل ما يصنعه جميل ، واذا لاقى الآخرون متاعب فى أعمالهم ، فما ذلك الا لأنهم رفضوا الأخذ بنصائحه ، فلا شيء يمكن أن ينجح دون نصائحه . وفى الكنيسة كان دائما يقف أمام الآخرين جميعا ، بل وكان يعنف القسس حين يعتقد انهم لا يوجهون الصلاة كما يجب ، وكان يؤمن بأنه بذلك انما يخدم الله ما دام يتمتع برحمته .

حين أزفت الساعة الثانية كان كل من فى المتجر مشغولين ما عدا العجوز الذى استمر يفرقع بصوته ، ولما كان لابتيف لا يريد أن يظل واقفا لا يفعل شيئا ، فقد تسلم بعض الأقمشة المزركشة من احدى

الحائكات ، ثم أستقبل زبونا ، وهو تاجر من فولوجدا ، وحوله الى أحد البائعين .

كانت أصوات الحروف « ت . ف . أ ! » تملأ المتجر ، « فقدكانت الحروف تستخدم للدلالة على الأسعار وأرقام البضائع » ، « ر . ى ، ت ! » .

وقبل أن يغادر لابتيف المتجر لم يودع سوى فيودور ، وقال له :

« سأحضر زوجتى غدا الى بياتنيتسكايا ، ولكنى أحذرك : لو قال أبى لها كلمة واحدة نابية فسوف أرحل على الفور » .

وتنهد فيودور وهو يقول :

ـ ما زلت كما أنت . تزوجت ولكنك لم تتغير . يجب أن تداعب العجوز قليلا يا ألكسى . حسن جدا ، سننتظرك غدا فى حوالى الحادية عشرة . تعال عقب الصلاة مباشرة » .

ـ أنا لا أحضر الصلاة .

ـ لا بأس ، هذا لا يهم . أهم شيء ألا تتأخر عن الحادية عشرة حتى يتسع الوقت أمامنا للصلوات وللغداء معا كذلك . أبلغ شقيقتى الصغيرة احتراماتى ، وقل لها انى اقبل يدها . أنا أعلم أنى سأحبها » ثم أضاف فيودور فى اخلاص تام :

ـ « انى أحسدك يا شقيقى ! » .

وسار خلف الكسى وهو يهبط السلم ، وبينما لابتيف يسير فى شارع نيكولاسكايا قال لنفسه :

« لماذا ظل يتلوى هكذا وكأنه عار ؟ » كان حائرا بشأن التغير الذى طرأ على فيودور فمضى يقول لنفسه :

« وما أغرب حديثه : « أخى ، أخى العزيز ، الله رحيم ، صل لله » . وكأنه بوذا فى قصة ششدرين » .

- ٦ -

في الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، وكان يوم أحد ، أخذ لابتيف وزوجته عربة خفيفة فى طريقهما الى شارع بياتنيتسكايا . لم يكن يفكر فى الزيارة المقبلة ، لأنه كان خائفا مما يمكن أن يفعله فيودورستبانيتش . وكانت يوليــــا سيرجيفنا ، بعد ليلتين ، فى بيت زوجها ، قد اعتبرت زواجها خطأ ، بل مصيبة ، ولو أنها كانت مضطرة الى الحياة فى أى مدينة أخرى غير موسكو لما كان باستطاعتها احتماله أبدا . لقد سحرتها موسكو ، كانت تحب الشوارع والبيوت والكنائس ، ولو كان باستطاعتها أن تركب واحدة من تلك الزحافات التى تجرها خيول أصيلة وتظل فيهـا من الصباح حتى المســاء ، تستنشق هواء الخريف البارد ، لكان من المحتمل الا تشعر بالتعاسة هكذا .

جذب الحوذى لجام الحصان بجانب منزل أبيض حديث الطلاء ، مكون من دورين ، ثم دار الى اليمين الى داخل الفنــــاء ، كان من الواضح أنهم ينتظرونهما ، لأن رجلين من رجال البوليس ، والبواب وقد ارتدى ثوبا جديدا وحذاء عاليا تغطيه قطعة من الجوخ ، كانوا يقفون أمام البوابة ، وكان الشارع أمام المنزل والفناء مرشوشين بالرمال حتى مدخل البيت . ورفع البواب قبعته ، وأدى رجلا البوليس تحية عسكرية . واستقبل فيودور الزوجين أمام الباب بوجه جاد الى أبعد حد ، قال وهو يقبل يد يوليا :

ـ « أنا فى غاية السعادة بمقابلتك أيتها الشقية الصغيرة ، مرحبا بك فى بيتنا » .

وقادهما على درجات السلم الى أعلى ، ثم خلال الممر المزدحم ، وكان البهو هو الآخر مزدحما بالناس وتتصاعد منه رائحة البخور .

وهمس فيودور قائلا وسط الصمت الوقور :

ـ « سأقدمك الآن الى أبينا . انه رجل عجوز وقور ، رأس العائلة » .

كان فيودور ستبانيتش واقفا فى الردهة الكبيرة أمام مائدة معدة للصلاة . والى جواره القس فى زيه الرسمى الخاص بالاحتفالات . وقدم العجوز يده ليوليا دون أن يتفوه بكلمة . وخيم الصمت على الجميع فى حين شعرت يوليا بالارتباك .

وارتدى القس والشماس ملابسهما الكهنوتية . واحضرت المبخرة يتطاير منها الشرر وتنبعث منها رائحة البخور والفحم . وأضيئت الشموع . ودخل الموظفون الى الصالة على أطراف أصابعهم ووقفوا فى صفين أمام الحائط . وساد الهدوء التام فلم تعد نسمع نأمه :

ـ « امنحنا بركاتك يارب ! » .

وجرت مراسم الاحتفال بكل وقار ، دون أن يحذف منها شىء ، ثم قرىء ترتيلان ، الأول عن المسيح ، والآخر عن الأم المقدسة . وغنى منشدو جوقة الكنيسة وفى أيديهم أوراق عليها النغمات الموسيقية وأطالوا الغناء كثيرا . ولاحظ لابتيف ارتباك زوجته ، وبينما كان الترتيلان يقرآن ، والجوقة تنشد « امنحنا بركاتك يارب » ثلاث مرات بكل النغمات الموسيقية ، ظل ينتظر فى توتر ، وهو يتوقع أن يستدير العجوز فى أية لحظة ويبدى ملاحظة ما ، كأن يقول : « انت لا تعرف كيف ترسم علامة الصليب » . كان وجود كل هؤلاء الناس ، والاحتفال كله بما فيه من القسس وأفراد الجوقة ، يبدو

كريها فى نظره . كان ثقيلا وعتيقا الى أبعد حد . ولكنه حينما رأى يوليا تحنى رأسها تحت الانجيل مع الرجل العجوز وتركع عدة مرات ، أدرك أن كل ذلك يعجبها ، وشعر بشيء من التحسن .

وقرب نهاية الاحتفال وبينما هم يغنون « حياة طويلة » ، قدم القس الصليب للعجوز ولألكسى كى يقبلاه ، ولكن حينما اقتربت يوليا سيرجفنا غطى القس الصليب بيده وأشار الى أنه يريد أن يتكلم . فلوح أحدهم بيده لجوقة كى تصمت . وبدأ القس يقول :

ـ « جاء النبى صمويل الى بيت لحم تنفيذا لأمر الرب . وارتعد شيوخ المدينة لمقدمه وقالوا : « هل جئت مسالما ؟ » فأجاب :

« جئت مسالما لأضحى من أجل الله ، فطهروا أنفسكم وتعالوا معى وضحوا » . فهل جئت أنت يا خادمة الرب يوليا الى بيتك بسلام ؟ » .

احمر وجه يوليا من العاطفة . وحين انتهى القس قدم لها الصليب لتقبله ، وقال بلهجة مختلفة تماما :

ـ والآن حان الوقت كى يتزوج فيودور فيودريتش ، وبسرعة » .

وبدأت الجوقة تنشد من جديد ، وانبعثت الحياة فى الجمع المحتشد ، فصدرت من الصالة ضجيج وحركة . وقبل العجوز يوليا ثلاث مرات ودموع الانفعال تملأ عينيه ، ثم رسم علامة الصليب على وجهها وقال :

ـ هذا بيتك . أنا رجل عجوز ، ولم أعد فى حاجة الى شيء » .

وتقدم الموظفون بتهنئاتهم التى ضاعت وسط ضجيج الجوقة . وقدم الغداء ومعه الشمبانيا .

جلست يوليا بجوار العجوز الذى قال لها انه لا خير فى أن يعيشوا منفصلين ، وانهم يجب أن يعيشوا معا فى بيت واحد ، لأن الانقسام والاختلاف دائما يؤديان الى الخراب ، وأضاف :

ـ لقد صنعت ثروة وأولادى ينفقونها . والآن يجب أن تعيشى هنا فى هذا البيت وتساعدينى . فأنا عجوز ، وقد آن لى أن أستريح » .

ان فيودور شديد الشبه بزوجها ، ولكنه أكثر منه عصبية وخجلا ، وقد ظل يحوم حولها طوال الوقت وقبل يديها عدة مرات . وقال وقد برزت فى وجهه بقع حمراء :

ـ « اننا قوم بسطاء يا أختى الصغيرة ، نحيا حياة بسيطة ، مثل الروسيين البسطاء ، مثل المسيحيين » .

***

فى طريق العودة الى البيت ، كان لابتيف يحس براحة كبيرة لأن كل شيء قد مر بسلام ولأن مخاوفه لم يكن لها أساس ، وقال لزوجته :

« قد تتعجبين لأن رجلا ضخما قويا كأبى أنجب ابنين هزيلين مثلى أنا وفيودور . ومع ذلك فالتفسير غاية فى البساطة ! لقد تزوج أبى والدتى وهو فى الخامسة والأربعين ولم تكن هى قد جاوزت السابعة عشرة وكانت تفزع منه . وقد ولدت نينا أولا حين كانت صحة أمى لا تزال جيدة نسبيا ، ولهذا السبب كانت دائما أقوى وأحسن صحة منا . أما أنا وفيودور فقد حملتنا أمنا وولدتنا بعد أن كان الفزع المستمر قد أنهكها تماما . انى أذكر كيف بدأ أبى يعلمنى أو بتعبير أدق يضربنى حين لم أكن قد بلغت الخامسة من عمرى . كان يجلدنى ، ويشد أذنى ، ويضربنى بقبضته على رأسى ، وكانت أول فكرة تخطر ببالى كل صباح هى هل سيضربنى أبى اليوم أم لا . لم يكن مسموحا لى ولا لفيودور باللعب أو الجرى هنا وهناك ، بل كان علينا أن نذهب مبكرين كل صباح لحضور الصلاة وتقبيل أيدى القسس والرهبان ، وقراءة التراتيل . أنت متدينة وتحبين ذلك

كله ، ولكنى أخشى أن أكون أنا قد بعدت عن الدين . وكلما مررت بكنيسة تذكرت طفولتى وملأنى الفزع . وحين بلغت الثامنة أخذنى للعمل فى المخزن كصبى صغير عادى ، وكان ذلك أمرا سيئا بالنسبة لى ، لأنهم كانوا يضربوننى كل يوم تقريبا ، وبعد ذلك ، حين أرسلت للمدرسة ، كانوا يعطوننى دروسا حتى موعد الغداء ، وأقضى بقية اليوم فى ذلك المخزن . واستمر ذلك حتى بلغت الثانية والعشرين ، حين ذهبت الى الجامعة وقابلت بارتسيف الذى أقنعنى بترك البيت . وفى رأيى أن بارتسيف قد أفادنى كثيرا » .

قال لابتيف ذلك وهو يضحك فى سعادة ، ثم أضاف :

« هيا بنا نزوره الآن . انه واحد من أروع الاشخاص الذين أعرفهم ! وسيسره أن يرانا ! » .

ـ ٧ ـ

ذات يوم سبت من شهر نوفمبر قاد انطـــون روبنشتين حفلة سيفمونية ، وكانت الصالة شديدة الازدحام وخانقة ، وكان لابتيف يقف خلف الاعمدة ، فى حين كانت زوجتـــه وكوستيا كوتشيفوا يجلسان بعيدا الى الأمام فى الصف الثالث أو الرابع . وكان العزف قد بدأ لتوه حين لمح ذلك الشخص » : بولينا نيكولاييفنا . منـــذ زواجه وهو يخشى مغبة لقائها . والآن ، حين التقت نظرتها الصافية المباشرة بنظرته ، تذكر أنه حتى لم يكتب لها ولو كلمة قصيرة ودودة يشرح فيها الأمر ، فاحمر وجهه خجلا . صافحته بيد ثابتة قوية ثم سألته :

ـ « هل رأيت يارتسيف ؟ » .

وقبل ان تتيح له فرصة للاجابة ، أسرعت بخطوات عجلة واسعة وكأن احدا يدفعها من الخلف .

كانت نحيلة وبسيطة الى أبعد حد ، أنفها طويل ، وعلى وجههـــا نظرة اعياء حتى لتبدو وكأنها تتكلف جهـــدا كبـــيرا لتبقى عينيها مفتوحين وتظل واقفة على قدميها . وكانت عيناها داكنتين رائعتين تضفيان عليها مظهر الطيبة والذكاء ، ولكن حركاتها كانت حادة ومفاجئة . وكان من الصعب أن تتحدث اليها لأنها مستمعة سيئة ، كما انها لا تستطيع التحدث بهدوء . ومن العسير ان تحبها . كانت تغطى وجهها بيديها وتضحك مدة طويلة ، ثم تعلن ان الحب ليس

أهم شيء فى الحياة ، ومثل فتاة فى السابعة عشرة كانت تطلب منه اطفاء الشموع كلها قبل أن يقبلها . لقـــد جاوزت الثلاثين بالفعل . وكانت متزوجة من مدرس ، ولكنها انفصلت عن زوجها منذ سنوات عديدة . وهى تكسب نفقات حياتها باعطـــاء دروس فى الموسيقى ، والعزف مع بعض الفرق الموسيقية الرباعية .

وحين كانوا يعزفون السيمفونية التاسعة مرت به كما لو كان الأمر مصادفة ، ولكنها لم تستطع أن تخترق الجمع الواقف خلف الأعمدة ولاحظ لابتيف أنها ترتدى نفس السترة المخملية التى ظلت ترتديها فى الحفلات الموسيقية خلال الموسمين المـاضيين ، وكانت ترتدى قفازا جديدا ، وتمسك بمروحة جديدة أيضا ، ولكنها رخيصة كانت تحب أن ترتدى ثيابا جميلة ، ولكنها لم تكن موهوبة فى هذا المجال كما كانت تبخل بالنقود على شراء الملابس ، فترتب على ذلك أنها ترتدى ملابسها بلا عناية ، وكان من يراها فى الشارع مسرعة لاعطاء دروسها بخطواتها الطويلة المهملة ، يظنها شماسا صغيرا .

صفق الجمهور وطالب بالاعادة ، وقالت يوليا نيكولاييفنا وهى تتقدم نحو لابتيف وترمقه بنظرة صارمة :

— « ستقضى الليلة معى . سنخرج من هنا ونتناول الشاى معا . أسمعتنى ؟ أنا مصرة . أنت مدين لى بالكثير ، وليس لديك حق أدبى يجعلك ترفض لى هذا الطلب التافه » .

ووافق لابتيف قائلا :

— « لا مانع » .

بعد ان انتهت السيمفونية فتحت الستار واغلقت عدة مرات . ولم يكن الجمهور متعجلا وهو يغادر الصالة ، ولكن لابتيف لم يكن باستطاعته الذهاب دون أن يقول كلمة واحدة لزوجته . ولذلك فقد كان عليه أو يظل واقفا ينتظر عند الأبواب .

وقالت راسودينا شاكية :

ــ « سأموت من أجل فنجان من الشاى . النار مشتعلة فى روحى » .

وأجاب لابتيف :

ــ « يوسعنا أن نتناول الشاى هنا . هيا بنا الى مشرب المرطبات

ــ لا أستطيع أن أبذر النقود بمثل هذه البساطة . لست تاجرا ثريا .

قدم لها ذراعه ، ولكنها رفضت متعللة بنفس الشرح المضجر الذى سمعه منها مرات عديدة من قبل عن أنها لا تعتبر نفسها فردا من الجنس الأضعف ، ولذلك فهى ليست بحاجة الى الاعتماد على أى رجل .

وبينما كانت تتحدث ظلت ترقب الجمهور بعينيها وتبادلت التحيات عدة مرات مع معارفها ــ وهم فى الأغلب زملاء فى الدراسة فى برامج « جورييه » الموسيقية وفى الكونسرفتوار ، ومن بينهم بعض تلاميذها كذلك . كانت تصافحهم على طريقتها السريعة المهتزة ، ولكنها ما لبثت بعد ذلك ان بدأت ترتعد وكأنها أصيبت بالحمى .

وأخيرا بدأت تتمتم قائلة وهى تحدجه بنظرات هلعة :

ــ « من هذه التى تزوجتها ؟ أين كانت عيناك يا أحمق ؟ ماذا رأيت فى هذه المخلوقة الغبية الخاوية ؟ لقد أحببتك لعقلك ، لروحك ، ولكن هذه اللعبة الخزفية لا تريد سوى نقودك ! » .

وتوسل اليها قائلا :

ــ « لا داعى لهذا يا بولينا أرجوك ، كل ما بوسعك أن تقوليه عن زواجى قلته لنفسى مرات عديدة . لا تسببى لى ألما لا داعى له ، أرجوك » .

ظهرت يوليا سيرجيفنا فى رداء أسود تزينه جوهرة كبيرة من اللؤلؤ أرسلها اليها حموها عقب الاحتفال . وكان يتبعها مرافقوها . كوستيا ، وطبيبان صديقان وضابط ورجل متين البنيان فى ملابس الطلاب ، واسمه « كيش » ..

وقال لابتيف لزوجته :

ـ « سيصحبك كوستيا الى البيت ، وسأحضر أنا فيما بعد » ..

هزت يوليا رأسها ومضت فى طريقها ، وارتعدت بولينا نيكولايفنا بعصبية وهى تتابعها بعينيها المليئتين بالازدراء والحقد والألم ..

كان لابتيف غير راغب فى الذهاب الى بيتها ، لأنه توقع مشهدا حزينا ، دموعا وكلمات عنيفة ، لذلك فقد اقترح بدلا من ذلك ـ أن يذهبا الى مطعم .

ولكنها استحثته قائلة :

ـ « لا ، لا ، هيا بنا الى بيتى . أتجرؤ على ذكر المطاعم أمامى ؟ » .

كانت لا تحب المطاعم ، لأنها تعتقد أن هواءها مسمم بالدخان وأنفاس الرجال . فقد كانت متحيزة بطريقة غريبة ضد جميع الرجال الذين لا تعرفهم ، وتعتبرهم جميعا محترفى غزل من الممكن أن يعتدوا عليها عند أقل اثارة . وفضلا عن ذلك فقد كانت موسيقى المطاعم تسبب لها صداعا .

وصلا الى نادى النبلاء ، واستأجرا عربة من أمامه ، وظل لابتيف يفكر فيها والعربة تمضى بهما الى أوسترهنكا ، وتدور متجهة نحو شارع سافيولوفسكى حيث تسكن راسودينا . انها محقة ، فهو مدين لها بالكثير . لقد التقى بها فى منزل صديقه يارتسيف ، وكانت تعطيه دروسا فى النظرية الموسيقية . وكان حبها له أصيلا خاليا

من كل أثر للأنانية ، وحتى بعد أن بدآ يعيشان معا واصلت اعطاء الدروس والعمل الى حد الانهاك كما كانت تفعل من قبل . وكانت هى التى علمته فهم الموسيقى وحبها .

قالت راسودينا بصوتها العميق وهى تغطى فمها بفراء يديها حتى لا تصاب بالبرد :

— « مملكتى كلها مقابل فنجان من الشاى ! لقد أعطيت اليوم خمسة دروس ، عليهم اللعنة ! تلاميذى شديدو الغباء والحمق ، حتى كدت أموت من الكمد . لست أدرى متى ستنتهى هذه العبودية . بمجرد أن أوفر ثلاثمائة روبل سأهجر كل شيء وأرحل الى القرم ، حيث استلقى على الشاطيء وأعب الأوكسجين عبا . لكم أحب البحر ! » .

وقال لابتيف :

— « لن تذهبى الى أى مكان ، أولا لأنك لن توفرى شيئا ، وثانيا لأنك ستبخلين بالنقود . أرجو أن تعذرينى ، ولكننى يجب أن أقول هذا مرة أخرى : أحقا أن جمع هذه الثلاثمائة روبل كوبك بكوبك من هؤلاء العاطلين الذين يتلقون دروسا منك بدافع الملل لا أكثر ، أقل اذلالا من اقتراض هذا المبلغ من أصدقائك ؟ » .

أجابت محنقة :

— « ليس لدى أصدقاء ! وأرجوك لا تقل كلاما لا معنى له . أنا أنتمى للطبقة العاملة ، ولهذه الطبقة ميزة واحدة : وهى أنها تعرف أنها غير قابلة للافساد ، وأن من حقها الا تقترض من التجار التعساء، ومن حقها أيضا أن تحتقر من تشاء . لا يا سيدى ، أنت لا تستطيع شرائى ، فأنا لست يوليا ! » .

لم يدفع لابتيف لسائق العربة أجرته ، فقد كان يعلم أن ذلك لابد أن يثير سيلا آخر من الكلمات التى سمعها مرات كثيرة قبل

ذلك ، وتركها تدفع الأجرة بنفسها .

كانت بولينا تستأجر حجرة صغيرة مفروشة من سيدة تملك شقة ، وكان الايجار يشمل الاقامة والطعام . وكانت تملك معزفا كبيرا من طراز « بيكار » وضعته فى مسكن بارتسيف فى شارع بولشايا نيكيتسكايا ، وكانت تذهب الى هناك كل يوم لتتدرب عليه . وكانت الحجرة مؤثثة بعدد من المقاعد عليها أغطية فضفاضة، وسرير عليه ملاءات بيضاء رفيعة ، ونباتات فى أصص تملكها صاحبة البيت ، وقد علقت على الجدران صور مطبوعة ، ولم يكن فى الحجرة ما يوحى بأن ساكنتها امرأة ، فضلا عن أنها طالبة سابقة . فلم يكن فيها مائدة زينة ، ولا كتب ، ولا حتى مكتب . وكان من الواضح أنها تأوى الى فراشها بمجرد أن تعود من الخارج ، ثم تغادر البيت بمجرد أن تستيقظ من نومها فى الصباح .

دخلت الطباخة بأبريق الشاى الكبير . وضعت بولينا نيكولاييفنا الشاى ، وهى ما زالت ترتعد ، لأن الحجرة باردة ، ثم بدأت تنقد المغنيات اللائى اشتركن فى السيمفونية التاسعة . وارتخى جفناها من التعب . واحتست فنجانا من الشاى ، أتبعته بثان ، ثم ثالث ، ثم قالت :

ــ » اذن فقد تزوجت ، ولكن لا تخف ، فلن أموت من الهجر ، بل سأستطيع أن أنتزعك من قلبى . ومع ذلك فانه يؤلمنى بحدة أن أعلم أنك سيء ككل الرجال ، وأن ما تحتاجه من المرأة ليس عقلها ، بل جسدها ، وجمالها ، وشبابها ... الشباب ! » .

أعادت الكلمة بصوت صادر من أنفها ، وكأنها تحاكم شخصا ما لتسخر منه ، وضحكت وهى تقول :

ــ « شباب ! أنت فى حاجة الى الطهر ! نعم انه الطهر ! » .

وانفجرت ضاحكة وهى تلقى بنفسها على ظهر مقدها .

ـ « الطهر ! » .

وحينما كفت عن الضحك كانت عيناها مليئتين بالدموع .

سألته :

ـ « هل أنت سعيد على الأقل ؟

ـ لا ..

ـ هل تحبك ؟ ..

ـ لا .. »

وقام لابتيف وقد بدا عليه الانزعاج الشديد والتعاسة ، وأخذ يذرع أرض الحجرة ، وعاد يكرر قوله :

ـ « لا ، الحقيقة أنى شديد التعاسة يا بولينا . ولكن ماذا أفعل ؟ لقد ارتكبت خطأ جسيما ، ولم يعد من الممكن اصلاحه الآن . ولابد أن أتفلسف حوله . نعم ، لقد تزوجت دون حب ، وبحماقة ، بل وربما لأسباب تجارية ، ولكنها ليست الدافع الوحيد، والآن من الواضح أنها عرفت خطأها وهى تتعذب . باستطاعتى أن أرى ذلك . طوال اليوم تخاف أن تبقى معى وحدها ولو لخمس دقائق ، وهكذا تبحث عن التسلية ، عن المجتمع ، فهى تشعر فى صحبتى بالخوف والخجل من نفسها .

ـ ولكنها لا تخجل من اخذ نقودك ؟ » .

وصرخ لابتيف :

ـ هذا غباء يا بولينا ، انها تأخذ النقود منى لأن الأمر يستوى بالنسبة اليها اذا كان معها نقود أو لم يكن . انها امرأة طيبة طاهرة العقل . تزوجتنى ببساطة لأنها كانت تريد البعد عن أبيها ، هذا كل ما فى الأمر » .

وسألته راسودينا :

– « هل أنت واثق بأنها كانت تتزوجك لو لم تكن غنيا ؟ » .

وأجابها لابتيف فى تعاسة :

– « لست واثقا من شيء .. لا شيء .. ولا أفهم أى شيء .. بالله عليك يا بولينا دعينا من هذا الموضوع .

– هل تحبها ؟

– بجنون .. !

وساد صمت طويل . احتست فنجانا رابعا من الشاى ، فى حين أخذ لابتيف يذرع الحجرة مفكرا فى زوجته ، لعلها الآن تتناول عشاءها فى نادى الأطباء .

وسألته وهى تهز كتفيها فى غير اكتراث :

– « ولكن هل من الممكن أن تحب دون أن تعرف السبب ؟ لا ، ليس هنا سوى انجذاب حيوانى ! أنت مأخوذ . لقد أعماك الجسد الجميل ، ذلك الطهر ! ابتعد عنى ، فأنت قذر ! اذهب اليها ! » .

أشارت الى الباب ، ثم أخذت قبعته وألقت بها اليه . وضع معطفه فى سكون وخرج ، ولكنها جرت خلفه وتعلقت بكتفه فى تشنج وانخرطت فى البكاء .

فقال وهو يحاول التخلص من قبضتها بلا جدوى :

« بولينا ، أرجوك ! لا داعى لهذا ! أتوسل اليك هدئى نفسك ! » .

أغلقت عينيها ، وشحب وجهها ، وتحول أنفها الطويل الى لون باهت كئيب وكأنه أنف جثة ، ولم يستطع لابتيف أن يفك أصابعها المتقلصة . فقد أغمى عليها . حملها برفق ووضعها فوق السرير وجلس بجوارها ما يقرب من عشر دقائق حتى استعادت رشدها . كانت يداها باردتين ، ونبضها يتردد ضعيفا وفى غير انتظام .

وقالت وهى تفتح عينيها :

ـ « عد الى بيتك ، هيا اذهب ، والا شرعت فى البكاء مرة أخرى . يجب أن أسيطر على نفسى » .

***

تركها وذهب الى بيته بدلا من نادى الأطبـــــاء حيث ينتظره الآخرون . وطوال الطريق الى بيته ظل يسأل نفسه بمرارة لمــاذا لم يتزوج هذه المرأة التى أحبته حقــا وكانت ذات يوم زوجتــه وصديقته . لقد كانت هى الشخص الوحيد الذى ارتبط به ، وفضلا عن ذلك ، اما كان من الممكن أن يكون شيئا رائعا وجديرا بالتقدير أن يهب السعادة والبيت والحياة الآمنة لمثل هذه المخلوقة الذكية المترفعة التى تعمل بجد وعزيمة ؟ وسأل نفسه : من يكون حتى يتطلع للجمال ، والشباب ، ولتلك السعادة البعيدة عن متناول يده ، والتى ، وكأن الأمر عقوبة أو سخرية لاذعة ، قد جعلته فى هــذه الحالة الذهنية الكئيبة الحزينة منذ أكثر من ثلاثة أشهر ؟ لقــد مضى زمن طويل منذ انتهى شهر العسل ، ورغم ما قد يكون فى ذلك من مجافاة للعقل ، فانه حتى الآن لا يعرف حقيقة شخصية زوجته . انها تكتب خطابات من خمس صفحات لصديقاتها من زميلات المدرسة ولأبيها ، ويبدو أنها تجد الكثير الذى تكتب عنه ، ولكنها معه لا تتحدث الا عن الجو ، أو انه قد حان وقت الغذاء أو العشاء . وحين يرقبها وهى تتلو صلواتها ، قبل أن تذهب الى فراشــها ، وتقبل صلبانها الصغيرة وصورها المقدسة لا يملك نفســه من التفكير بحقد ، « لماذا تصلى ؟ » كان يهينها فى عقله ويهين نفسه فيزعم أنه حين ينام معها فى الفـــــراش ويأخذها بين ذراعيه ، انما يأخذ ما اشتراه ودفع ثمنه ، ولكن ذلك كان يبدو فظيعا . لو أنها فقط كانت امرأة قوية جسور آثمة لاختلف الأمر ، ولكنها كانت صغيرة جدا ، شديدة التقوى والرقة ، ولها عينان بريئتان الى أبعد حد !

وهى عروس كان تدينها يؤثر فيه ، أما الآن فهو يرى فى هذه المجموعة من الأفكار والعقائد التقليدية سدا منيعا يخفى الحقيقة . لقد أصبحت حياته بالفعل عذابا خالصا . وحين تجلس زوجته الى جواره فى المسرح وتتنهد أو تضحك من قلبها كان يؤلمه أن يرى أنها تستطيع أن تمتع نفسها دون أن تقاسمه سعادتها . أما الشيء العجيب حقا فهو أنها استطاعت أن تتفاهم الى أبعد حد مع أصدقائه، وكانوا جميعا يعرفونها خير معرفة ، فى حين ظل هو لا يعرف عنها شيئا ، ولا يملك سوى أن يتبلد ويعانى آلام الغيرة فى صمت .

***

حين وصل لابتيف الى البيت ، ارتدى خفيه وسترة التدخين ، وجلس فى حجرة مكتبه ليقرأ فى رواية . ولم تكن زوجته قد عادت بعد . ولكن بعد حوالى نصف ساعة سمع رنين جرس الباب ، وسمع صوت « بيوتر » وهو يسرع ليفتح . كانت يوليا . دخلت حجرة المكتب فى معطفها المصنوع من الفراء ، وقد احمرت وجنتاها من تأثير الصقيع .

وقالت لاهثة :

ـ « هناك حريق كبير فى بريسنيا . السماء حمراء مشتعلة . وأريد أن أذهب الى هناك بالعربة مع كوستيا .

ـ اذهبى ، بكل سرور .

هدأت نفس لابتيف لمرأى نضارة الصحة والفزع الطفولى فى عينيها ، فظل يقرأ نصف ساعة أخرى ، ثم آوى الى الفراش .

***

وفى اليوم التالى أرسلت اليه بولينا نيكولاييفنا فى المخزن كتابين كانت قد أخذتهما منه ، وكل خطاباته وصوره . ومعها خطاب مغلق مكون من كلمة واحدة باللغة الايطالية : « كفى ! » .

- ٨ -

في أواخر أكتوبر ازدادت حالة نينا فيودروفنا سوءا بشكل واضح فنقص وزنها بسرعة ، وطرأ تغير على ملامح وجهها . وبالرغم من الألم الممض كانت تتصور أنها فى طريقها للشفاء ، وفى كل صباح كانت ترتدى ملابسها وكأنها فى أتم صحة ، ثم تقضى بقية اليوم مستلقية فى الفراش وقد ارتدت ملابسها كاملة . وقرب النهاية أصبحت شديدة الثرثرة . فكانت تستلقى على ظهرها تتحدث بصوت منخفض وهى تلهث من الاعياء . وجاء الموت فجأة .

كانت ايلة قمرية صافية ، وأهل المدينة يركبون الزحافات ويسيرون بها فوق الجليد الجديد ، وكان الضجيج مسموعا فى الحجرة . وكانت نينا فيودروفنا مستلقية فى سريرها ، وساشا ، التى لم يعد هناك الآن من يسرى عنها ، جالسة بجوارها وقد غلبها النعاس .

وكانت نينا فيودروفنا تقول بصوتها الخافت :

- « لست أذكر اسم أسرته ، ولكن اسمه الأول كان ايفان ، ولقبه كوتشفوا . كان موظفا حكوميا ، ولكنه فقير جدا ، وسكير بصورة مخيفة ، أراح الله روحه . كان يزورنا بصفة منتظمة ، وكل شهر كنا نعطيه رطلا من السكر وكيسا من الشاى ، ونقودا أيضا فى بعض الأحيان . ثم ، ذات يوم رائع ، شرب صديقنا كوتشفوا كمية أكثر قليلا ومات ، أحرق نفسه بالفودكا . وترك ابنا ، طفلا

صغيرا فى حوالى السابعة . يتيم صغير مسكين . فأخذناه وخبأناه فى المخزن الملحق بمساكن الموظفين ، وظل أبى سنة كاملة لا يعلم عنه شيئا . وحينما علم بأمره لم يقل شيئا . وحينما بلغ كوستيا ، وهو الطفل اليتيم ، التاسعة من عمره ــ وكنت قد خطبت وقتذاك ــ أخذته الى كل المدارس الابتدائية . ولكن الجميع رفضوه . وبكى ، الطفل المسكين ، فقلت له : « لماذا تبكى أيهـــا الطفل الغبى ؟ » وأخذته الى المدرسة الابتدائية فى رازجولاى ، وهناك ، شكرا لله ، قبلوه . وكل يوم كان على ذلك الصبى الصغير أن يسير الطريق الطويل من بياتنيتسكايا الى « رازجولاى » ومن رازجولاى الى بياتنيتسكايا . ودفع اليوشا مصاريف تعليمه . ومن حسـن الحظ أن الطفل ذاكر دروسه بجد ونجح . وهو الآن محام فى موسكو ، وصديق لأليوشا ، ومتعلم مثله . انه لشىء جميل أن نأخذ صبيا مسكينا ونقـدم له المأوى . لابد انه الآن يذكرنا فى صـلواته .. نعم .. » .

أخذ الصوت يخفت ويخفت ، وفترات الصمت تطول ، ثم بعد صمت قصير ، اذا بها تجلس فجأة وتقول :

ــ « أشعر أنى .. لست على ما يرام . فليرحمنى الله ! انى لا أقوى على التنفس ! » .

وأدركت ساشا ان أمها ستموت بعد قليل ، وحينما رأت كيف تهدلت وجنتاها فجأة خمنت أن النهاية قريبة وفزعت ، وأخذت تنتحب قائلة :

ــ « أمى العزيزة ، لا تذهبى ! لا تذهبى !

ــ اسرعى الى المطبخ يا عزيزتى واطلبى من احـدهم أن يذهب لاحضار أبيك . أنا أشعر بأنى مريضة جدا ! » .

جرت ساشا فى كل الحجرات تنادى الخدم ، ولكنهم كانوا جميعا

بالخارج ماعدا شقيقتها الصغرى « ليدا » التى كانت نائمة على صندوق كبير فى حجرة الطعام دون وسادة ، وقد ارتدت ملابسها كاملة . وأسرعت ساشا ، دون أن تتوقف لترتدى معطفها أو غطاء حذائها ، الى الفناء ، ثم الى الشارع . وكانت المرضة جالسة على مقعد خارج البوابة تراقب زحافات الجليد . وثمة فرقة موسيقية عسكرية كانت تعزف هناك عند النهر حيث حلبة الانزلاق على الجليد .

وصرخت ساشا وهى تنتحب :

« أيتها المرضة ، أيتها المرضة ، أمى تموت . ويجب أن نحضر أبى حالا » .

صعدت المرضة الى حجرة النوم ، وألقت نظرة على المريضة ثم وضعت شمعة مشتعلة بين يديها . فى حين أخذت ساشا تجرى هنا وهناك فى هلع ، تتوسل الى شخص ما ، أى شخص ، أن يذهب ليحضر أباها ، ثم ارتدت معطفها وغلالتها ، وجرت مسرعة الى الخارج . كانت تسمع الخدم يقولون ان أباها له زوجة أخرى وابنتان أخرتان تعيشان فى شارع بازارنيا . فجرت الى الشارع ، تبكى وتخجل من المارة ، وتتعثر فى حفر الجليد العميقة ، وترتعد من البرد .

مرت عربة فى الشارع ولكنها لم تستأجرها خشية أن يأخذها السائق الى خارج المدينة حيث يسرقها ويلقى بها فى المقبرة (فقد سمعت مرة الخدم يروون حادثة كهذه وهم يتناولون الشاى) . ظلت تسرع وتسرع ، وتلهث من الاعياء ، وتنتحب وهى ماضية فى طريقها . وحين وصلت الى شارع بازارينا توقفت لتسأل امرأة مارة أين يسكن السيد بانوروف . وبدأت المرأة تقدم لها وصفا تفصيليا ، ولكنها حين رأت الطفلة لا تفهم شيئا مما تقوله ، قادتها

من يدها الى منزل من دور واحد .

كان الباب الخارجى مفتوحا ، فجرت ساشا مسرعة عبر صالة المدخل ، ثم خلال ممر وجدت نفسها بعده فى حجرة دافئة مضاءة بنور قوى ، ورأت أباها جالسا بجوار ابريق شـــاى كبير يتناول الشاى مع سيدة وفتاتين صغيرتين . ولكن ساشا كانت قد أصبحت الآن عاجزة عن الكلام ، ولم يكن باستطاعتها سوى أن تنتحب . وخمن بانوروف على الفور سبب مجيئها ، فسأل :

ـ « هل ماما ؟ هل هى فى حالة سيئة ؟ اخبرينى يا فتاة ، هل أمك فى حالة سيئة ؟ » .

ونهض مسرعا وأرسل يطلب عربة .

حين وصلا ، كانت نينا فيودروفنا جالسة فى السرير محاطة بالوسائد وممسكة بشمعة فى يدها . كان وجهها داكنـــا وعيناها مغلقتين بالفعل . وكانت حجرة النوم مليئة بالناس ـ المرضة ، والطباخة ، وخادمة الردهة ، والأجـــير بروكوفى ، وعدة غرباء متجمعين عند باب الحجرة . وكانت المرضة تهمس ببعض التعليمات ولكن أحدا لم يفهم ماتريد منهم عمله . والى جوار النافذة البعيدة عند نهاية الغرفة وقفت ليدا ، لم تستيقظ بعد تماما من نومها ، تحدق فى أمها بعينين جامدتين .

أخذ بانوروف الشمعة من يد « نينا فيودروفنا » وطوح بها فوق مائدة الزينة ، وقد قطب وجهه فى امتعاض .

وقال وكتفاه تهتزان :

« هذا فظيع ! » .

ثم أضاف برقة :

« نينا ، يجب أن تنامى . نامى ، يا عزيزتى « .

وحين وصل القس والدكتور سيرجى بوريستش ، كان الخدم

قد بداوا يرسمون علامات الصليب على صدورهم فى تقـــــوى ، ويتمتمون بالصلوات على روح سيدتهم .

وقال الدكتور فى ذهول وهو يدخل الى حجرة الاستقبال :

ـ « هذا أمر محزن جدا . كانت لا تزال صغيرة . لم تتجاوز الأربعين بعد » .

وكان من الممكن سماع صوت الفتاتين الصغيرتين تنتحبان بصورة تستثير الاشفاق . وجاء بانوروف شاحب الوجه مبلل العينين الى الطبيب ، وقال بصوت خافت واهن :

ـ « يارجلى العزيز ، اصنع فى معروفا واكتب برقية الى موسكو نيابة عنى . فأنا مرهق الى أبعد حد » .

وأحضر الطبيب شيئا من الحبر ، وكتب برقية الى ابنته :

« توفيت بانوروفا فى الساعة الثامنة مساء . اخبريهم أن منزل الزوج سيباع سدادا للديون ، الاعلان فى التاسع ، والمزاد فى الثانى عشر . لا تتخلفى » .

- ٩ -

كان لابتيف يسكن فى شارع جانبى متفرع من مالايا دميتروفكا ، غير بعيد من كنيسة سانت بيمين القديمة . وبالاضافة الى البيت الكبير الذى يواجه الشارع ، استأجر لابتيف جناحا من دورين فى الفناء لصديقه كوستيا كوتشيفوا ، وهو محام شاب يناديه جميع افراد أسرة لابتيف بـ « كوستيا » ببساطة منذ عرفوه وهو طفل . وكانت تسكن فى الجناح المقابل المشابه لجناح كوستيا أسرة فرنسية مكونة من زوج وزوجة وخمس بنات .

كان يوما باردا ، وقد علا الصقيع النوافذ . واستيقظ كوستيا فى الصباح ، وتناول خمس عشر قطرة من دواء ما ، وعلى وجهه نظرة قلقة ، ثم أخذ من صوان الكتب عمودين صغيرين من الحديد أدى بهما بعض التمرينات الرياضية . كان طويلا شديد النحافة له شارب بنى كث ، ولكن أكثر ما يلفت النظر فيه هو ساقاه الطويلتان بصورة غير عادية .

واندفع « بيوتر » وهو خادم فى أواسط العمر ، يرتدى سترة وسراويل من القطن وحذاء عاليا ، وادخل الابريق الكبير وصنع الشاى وقال :

ـ « انه يوم بديع يا سيدى » .

ـ « ممكن يا صديقى ، ولكن المشكلة أنك أنت وأنا ليس لدينا الكثير مما يسر » .

وصعد بيوتر تنهيدة مهذبة ، فسأله كوستيا :

ـ « ماذا عن الفتاتين الصغيرتين ؟

ـ « لم يحضر القس بعد . وألكسى فيودوريتش يعطيهما درسا بنفسه » .

عثر كوستيا على جزء غير متجمد على زجاج النافذة ، فبدأ يجرب منظار الأوبرا المعظم ويصوبه نحو نوافذ المنزل الذى تسكن فيه الأسرة الفرنسية ، ثم ما لبث أن قال :

ـ « لا أستطيع أن أرى شيئا » .

فى هذه الأثناء كان الكسى فيودرويتش يعطى درسا فى الخط لساشا وليدا . وكانا يقيمان فى موسكو الآن ومنذ ستة أسابيع . يشغلان الطابق الأرضى من الجناح مع مربيتهما . وكان يحضر اليهما مدرس المدرسة العامة بالمدينة وقس ثلاث مرات فى الأسبوع . ان ساشا تدرس الآن « العهد الجديد » ، فى حين بدأت ليدا منذ قليل العهد القديم . وفى الدرس الأخير طلب القس من ليدا أن تذاكر النص حتى ابراهام .

قال لابتيف :

ـ « والآن ، لقد أصبح لآدم وحواء ابنان . أليس كذلك ؟ ما اسماهما ؟ هل تذكرين ؟ » .

حدقت ليدا ، بوجهها المقطب كالعادة ، الى المائدة ، وشفتيها تتحركان ، ونظرت اليها الفتاة الأكبر منها بقلق . وقال لابتيف :

ـ « أنت تعرفين جيدا . لا ترتبكى ، حسن ، ما اسم ابنى آدم ؟ » .

وهمست ليدا :

ـ « آبيل وهابيل » .

فصحح لها لابتيف :

ـ « قابيل وهابيل » .

وانحدرت دمعة كبيرة على خد ليدا وسقطت على الكتاب . وكانت ساشا هى الأخرى على وشك الانخراط فى البكاء ، فخفضت عينيها واحمر وجهها . ولم يستطع لابتيف أن يتكلم من شدة الاشفاق . فنهض وأشعل سيجارة . وفى تلك اللحظة هبط كوستيا من الدور العلوى وفى يده جريدة . وقفت الفتـاتان وحيتاه دون أن ينظرا اليه .

ــ « أرجوك ياكوستيا ، خذهما مع درسهما ، ارجوك . أخشى أن انخرط فى البكاء أنا أيضا ، فضلا عن أنى يجب أن أكون فى المخزن قبل الغذاء » .

ــ لا مانع .. »

خرج ألكسى فيودوريتش ، وجلس كوستيا أمام المائدة متجهم الوجه شديد الصرامة ، وقرب الانجيل اليه وقال :

ــ « والآن ، أين وصلتما ؟ »

وقالت ساشا :

ــ « انها تعرف الطوفان » .

ــ حقا ، حسنا ، لنتحدث عن الطـــوفان . لننته من أمر الطوفان » .

أجرى كوستيا عينيه على الوصف الموجز للطوفان فى الكتاب ، ثم قال :

ــ يجب ان أقول لكما مع ذلك ، انه لم يكن هناك طوفان كذلك الموصوف هنا . ولم يكن هناك نوح أيضـــا . فقبل مولد المسيح بآلاف السنين حدث فعلا فيضان ، وتجدان اشارة له لا فى الانجيل العبرى وحـده بل كذلك فى كتب الشعوب القـديمة كاليونانيين والكلدانيين والهندوس . ولكن مهما كانت ضخامة هذا الفيضان فلا يمكن أن يغرق الكرة الارضية كلها . ربما أغرق السهول ــ ولكنه لم

يفرق الجبال . لا ضرر فى قراءة هذا الكتاب ولكن لا داعى لأن تصدقا كل ما يقول » .

انهمرت دموع ليدا من جديد ، ثم ابتعدت وفجأة اذا بها تنفجر باكية بصوت مرتفع ، حتى لقد قفز كوستيا من مقعده فى خيبة أمل ..

قالت وهى تنتحب :

ــ « أريد أن أعود الى البيت ، الى بابا والممرضة » .

وبدأت ساشا تبكى هى الأخرى . فصعد كوستيا الى الدور العلوى واتصل بيوليا سيرجيفنا بالتليفون :

ــ « يا فتاتى العزيزة ، لقد عادت الطفلتان الى البكاء مرة أخرى . ولا أعلم ماذا أفعل » .

جاءت يوليا سيرجيفنا مسرعة من البيت الكبير وقد وضعت فوق ثوبها وشاحا من الصوف ، وكانت ترتعد بعض الشىء من تأثير البرد . وتوسلت الى الطفلتين وهى تضمهما اليها :

ــ « استمعا الى ، استمعا ، سيحضر أبوكما اليوم ، لقد ارسل برقية الى . وما حدث لماما أمر محزن جدا ، وقلبى يتمزق من أجلكما أنتما الاثنتان ولكن ماذا نستطيع أن نفعل ؟ اننا لا نستطيع أن نعترض على ارادة الله ! » .

وحينما كفتا عن الصراخ ، ضمتهما اليها ، وصحبتهما معا فى نزهة بالعربة ، مررن خلالها بشارع مالايا دميتروفكا ، ثم أمام ستراستنوا حتى تفرسكايا . وفى كاتدرائية أفيرسكى وضعت كل منهن شمعة أمام الصور ، وركعت وصلت . وفى طريق العودة نزلن فى فيليبوف واشترين بعض الحلوى .

كانت أسرة لابتيف تتناول غداءها فيما بين الساعة الثانية والثالثة وكان بيوتر يقوم بالخدمة على المائدة . وبيوتر كان يصنع كل

شيء . فى الصباح يخرج لاحضار الحاجيات من مكتب البريد ، ومن المخزن ، ومن محكمة الحى لكوستيا ، ويقدم الوجبات الى جانب ذلك . وفى المساء يصنع السجائر ، وفى الليل يفتح الباب ، وفى الخامسة صباحا يكون قد أوقد الأفران . ولا احد يعلم متى ينام . كان مغرما بفتح زجاجات الصودا ، وكان يفتحها بمهارة فائقة ، دون أن تنسكب منه قطرة واحدة .

وقال كوستيا وهو يهز كأسا من « الفودكا » أمام طبق حسائه :

ـ « هنا نبدأ » .

***

فى بادىء الأمر لم تكن يوليا سيرجيفنا تحب كوستيا ، فصوته الغليظ ، والتعبيرات التى يستخدمها مثل « ضربه بالشلوط » ، « دفعه فى وجهه » ، « عفن » ، « يمون ابريق الشاى الكبير » ، وعادته فى خبط الكئوس والقاء الخطب قبل كل كأس من النبيذ ، بدأ لها ذلك سوقيا الى أبعد حد . ولكنها حينما عرفته أكثر بدأت تشعر بمنتهى الراحة فى صحبته . فقد كان صريحا معها ، ويحب أن يثرثر معها بهدوء فى المساء ، بل وأكثر من ذلك سمح لها بقراءة رواياته ، التى ما زال يحتفظ بها سرا يخفيه حتى عن أصدقائه المقربين من أمثال لابتيف وبارتسيف . قرأت الروايات وأثنت عليها لكيلا تؤذى مشاعره ، وسره ذلك الى أبعد حد . فقد كان يعتقد أنه سيصبح ، ان عاجلا أو آجلا ، كاتبا مشهورا . وكان لا يكتب الا عن الفلاحين والأعيان ، بالرغم من أنه لم يعش فى الريف الا فى مناسبات قليلة حين كان يزور أصدقاءه ولم يدخل بيتا ريفيا الا مرة واحدة فى حياته حين ذهب الى « فولو كولامسك » فى مهمة قانونية . تجنب الكتابة عن الحب ، وكأن الموضوع يزعجه ، ولكنه كثيرا ما وصف الطبيعة ، وكان ضعيفا أمام تعبيرات

مثل « الأبعاد الخيالية للجبال » ، « تكوينات السحب الرائعة » ، أو « سيمفونية من الأصوات الخفية المنسجمة » . ولم تطبع رواياته أبدا ، وهى حقيقة يعتبر الرقيب مسئولا عنها .

كان يحب عمله كمحام ، ولكنه يعتقد أن الأدب هو مهنته الأصيلة وليس القانون . لقد سحره الفن دائما وكان واثقا بأن طبيعته طبيعة فنية رائعة . لم يكن يغنى ولا يعزف على أى آلة وأذنه ليست موسيقية بأية حال ، ولكنه كان يذهب الى الحفلات السيمفونية والفيلهارمونية ، ويتولى ترتيب كل شئون الحفلات الخيرية ، ويقدم نفسه للموسيقيين .

***

دارت أحاديث كثيرة على الفداء ، فقال لابتيف :

ـ « هل تصدقون أن أخى فيودور طلع علينا اليوم بمفاجأة جديدة. انه يقول يجب أن نعلم متى ستتم المؤسسة قرنا من عمرها حتى نقدم طلبا لرفعنا الى طبقة النبلاء . وهو جاد تماما فيما يقول . ولست أدرى ماذا أفعل . بصراحة لقد بدأت أتوجس خيفة » .

وتحول الحديث الى فيودور ، وكيف أصبح مما يتمشى مع العادات الحديثة هذه الأيام أن يتخذ الانسان موقفا استعراضيا أو آخر ، ففيودور مثلا ، يحاول أن يقوم بدور التاجر الروسى الغيور على عمله ، وهو شيء لم يعد له وجود الآن ، ويتحدث بصوت غليظ مجامل مع مدرس المدرسة الذى يرعاه لابتيف الكبير ، حين يحضر ليتسلم راتبه .

وبعد الفداء انتقلوا الى المكتبة لأنه لم يكن لديهم شيء أفضل يفعلونه ، وتحدثوا عن الانحلاليين وعن « عذراء أوليانز » ، وألقى كوستيا مونولوجا طويلا من المسرحية تصور انه محاكاة دقيقة لبيرمولوفا . وجلسا بعد ذلك ليلعبوا الورق . ولم تذهب الفتاتان

الصغيرتان الى مسكنهما ، بل جلستا متجاورتين فى مقعد وثير ، شاحبتين حزينتين ، تجفلان مع كل صوت عربة تمر أمام المنزل ، على أمل أن يكون أبوهما قد وصل . كانتا بائستين الى أبعد حد ، وبخاصة فى المساء ، وحتى بعد أن تشعل الشموع . كانتا تنزعجان لحديث الكبار على مائدة اللعب ، ووقع أقدام بيوتر ، وقرقعة الاخشاب فى المدفأة . كانتا أتعس من أن ترقبا ألسنة النار المشتعلة ، ولم تستطيعا حتى أن تواصلا البكاء . كان كل شيء يثير فزعهما . وكان قلباهما مثقلين ، ولم يكن باستطاعتهما أن يفهما كيف يستطيع أى شخص أن يتحدث ويضحك وامهما ميتة .

سألت يوليا سيرجيفنا كوستيا :

ـ « ماذا رأيت اليوم بمنظارك المعظم ؟ » .

ـ اليوم لا شيء ، ولكن بالأمس رأيت الرجل الفرنسى يستحم » .

فى الساعة السابعة خرجت يوليا سيرجيفنا وكوستيا للذهاب الى مسرح « مالى » . وبقى لابتيف بالمنزل مع الفتاتين الصغيرتين ، وقال وهو يلقى بنظرة على ساعته :

ـ « كان المفروض أن يكون أبوكما قد وصل الى هنا . لابد أن القطار تأخر » .

وجلست الفتاتان صامتتين ملتصقتين كل منهما بالأخرى فى المقعد الوثير وكأنهما حيوانان ضئيلان يرتعدان من البرد ، فى حين أخذ لابتيف يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ويلقى كل بضع دقائق بنظرة على ساعته وقد نفذ صبره . كان المنزل ساكنا تماما . وحوالى الساعة العاشرة دق جرس الباب . وذهب بيوتر ليفتح .

وحين سمعت الصغيرتان صوت أبيهما صرختا ، وطارتا للقائه ، وهما تنتحبان بعنف . كان يرتدى معطفا فاخرا من الفراء ، وكانت لحيته وشاربه ملطخين بالجليد المندوف . وتمتم هامسا للفتاتين :

ـ « كفى ، كفى .. »

كانت « ساشا » و « ليدا » تضحكان وتبكيان فى وقت واحد ، وتغطيان يديه الباردتين ، وقبعته ، وفراء معطفه بالقبلات . كان الأب وسيما ، واهنا ، مترعا بالحب . فربت عليهما وهو شارد الذهن . ثم توجه الى حجرة المكتب وقال وهو يفرك يديه :

ـ « لن أبقى طويلا يا أصدقائى . فغدا سأسافر الى بطرسبورج . فقد وعدنى بوظيفة فى مدينة أخرى » .

وتوقف قبل أن يقول :

ـ « درسدن » .

- ١٠ -

كان ايفان جافريليتش بارتسيف يتردد كثيرا على أسرة لابتيف . وكان رجلا متين البنيان ، أسود الشعر ، وجهه لطيف ، وذكى ، وكان يعتبر بشكل عام وسيما ، ولكنه فى الفترة الأخيرة أصبح بدينا ، فأفسد ذلك مظهره ، بالاضافة الى انه كان يسرف فى تقصير شعره ، وفى أيام الجامعة اشتهر باسم « البطل » بسبب تكوينه الرياضى .

لقد تخرج فى قسم اللغويات مع لابتيف وشقيقه ، ثم درس بعد ذلك العلوم الطبيعية ، وقد حصل الآن على درجة جامعية فى الكيمياء ولم يكن يطمح الى الحصول على كرسى جامعى فى الكيمياء ، بل لم يشتغل حتى فى معمل ، ولكنه كان يدرس الطبيعة والتاريخ الطبيعى فى مدرسة تجارية وفى مدرستين ابتدائيتين للبنات . وكان شديد الحماسة لتلاميذه ، والبنات منهم بصفة أخص ، ويصر على ان جيلا رائعا يتكون هذه الأيام . وبالاضافة الى الكيمياء ، قام بدراسة علم الاجتماع وتاريخ روسيا بنفسه ، وكان ينشر مقالات قصيرة فى الصحف والمجلات يوقعها بالحرف الأول من اسمه : « ى » . وكلما تحدث عن علم النبات أو الحيوان بدا وكأنه مؤرخ ، فاذا عالج مشكلة تاريخية خيل لمن يسمعه أنه عالم طبيعى .

وكان « كيش » صديقا آخر مقربا لأسرة لابتيف ، ويعرف أحيانا باسم « التلميذ الخالد » . فقد أمضى ثلاث سنوات فى مدرسة

الطب ، ثم تحول الى الرياضة وقضى عامين فى كل سنة دراسية . وكان أبوه ، وهو صيدلى فى أحد الأقاليم ، يرسل اليه اربعين روبلا كل شهر ، كانت أمه تضيف اليها سرا عشرة اخرى . وكان هــذا المبلغ يكفيه ليعيش مطمئنا ، بل ليحصل كذلك على بعض الكماليات مثل معطف بياقة من فراء الجندب البولندى ، وقفاز ، وعطور وصور (كثيرا ما اخذ صورا لنفسه ليهديها الى معارفه) . كان رجلا صغيرا أنيقا ، أميل للصلع ، وله سالفان ميالان للحمرة بالقرب من أذنيه ، وكان متواضعا ، كريم الأخلاق . دائما ابدا يؤدى خدمات للناس ، فاما أن يتجول مسرعا بقائمة اشتراكات ما ، واما أن يقف وهو يكاد يتجمد من البرد فى صف أمام شباك تذاكر منــذ الصباح الباكر ، ليبتاع تذكرتين فى أحد المسارح لسيدة من معارفه ، أو يسرع ليشترى اكليلا أو باقة من الزهور لشخص ما . والنــاس دائما يقولون : « كيش » سيذهب ، « كيش » سيتولى الأمر ، « كيش » سيشترى ذلك ، وكان عادة يهمل فى المهام المطلوبة منه فينهال اللوم عليه من كل جانب بسبب ما تحمله ، وكثيرا ما ينسى الناس أن يدفعوا له ثمن ما اشتراه لهم ، ولكنه لا يشكو ابدا ، ولا يزيد على التنهد . ولا يستعرض أبدا لا سعادته ولا متاعبه ، وكانت أحاديثه غبية طويلة ، ولا يضحك الناس على نكاته الا لأنها لا تضحك ابدا . قال مرة لبيوتر « بيوتر أنت فخذ » ، فضحك الجميع ، واشتد اعجابه بنفسه لأنه خفيف الظل بهذا القدر ، وفى جنازة اى أستاذ لابد أن تجده فى الطليعة بين حملة المشاعل .

فى المساء يحضر بارتسيف و « كيش » لتناول الشاى . وعادة اذا لم يكن أهل البيت ذاهبين الى المسرح أو الى حفل موسيقى ، فان تناول الشاى يمتد الى موعد العشاء . وذات مساء فى فبراير بينما كانوا جالسين فى حجرة الطعام ، اذ تطرق الحديث الى الفن .

واذا بكوستيا يقول وهو يحدج بارتسيف بنظرات صارمة :

ـ « لا تكون للعمل الفنى قيمة ما لم يعالج مشكلة اجتماعية جادة . والعمل الفنى الذى يحتج على العبودية ، أو يعبر عن سخط مؤلفه على فساد الطبقة الراقية ، عمل هام وقيم . أما الروايات والحكايات المليئة بالآهات والتأوهات ، والقصص الى تدور حول وقوع المراة فى حب الرجل ، ووقوع الرجل فى حب المراة ، مثل هذه الكتب لا قيمة لها بالمرة ومن الخير اعدامها » .

وقالت يوليا سيرجيفنا :

ـ « أنا متفقة معك تماما ياكوستيا ، هذا كاتب يصف مكان لقاء المحبين ، وآخر يكتب عن الخيـــــانة ، وثالث يروى كيف تصالح العاشقان أليس هناك موضوع آخر يكتبون عنه ، هناك كثيرون من المرضى ، والتعساء ، والفقراء المعدمين ، ولابد أنهم يثورون حين يقرأون مثل هذه الأشياء » .

وكان لابتيف لا يسره أن يسمع زوجته ، وهى المراة الشابة التى لم تكمل بعد الثانية والعشرين من عمرها ، تتحدث عن الحب بمثل هذا التعقل والبرود . وكان يظن أنه يدرك سبب ذلك .

وقال بارتسيف :

ـ « ولكن اذا كان الشعر لا يحل هذه المشكلات التى تبدو شديدة الأهمية فى نظركم ، لماذا لا تتحولون عنه الى الأدب العلمى ، فى كتب القانون أوالمالية أو المقالات العلمية ، ولماذا تعالج « روميو وجولييت » مثلا موضوع مجـــانية التعليم أو تطهير السجون بدلا من الحب ، ما دمت تجد كل ذلك فى المقالات الخاصة ومواد المراجع الموسوعات الخاصة بالموضوع ؟ » .

فقاطعه كوستيا قائلا :

« ها أنتذا تسرف فى المبالغة يا رجل . اننا لا نتحدث عن العمالقة

من أمثال شيكسبير أو جوته ، اننا نتحدث عن مئات الكتاب الموهوبين أو المتوسطين الذين سيصبحون اكثر نفعا لو أنهم تركوا الحب وشأنه وكرسوا أنفسهم لتقديم المعرفة والأفكار الانسانية للجماهير » .

وشرح « كيش « يتحدث وكأن شيئا يقف فى حنجرته ، محدثا طنينا أنفيا خفيفا ، وبدأ يروى قصة قرأها اخيرا . وتعمد ان يحكيها ببطء وبتفصيلات كثيرة ، ومرت ثلاث دقائق ، ثم خمس ، ثم عشرة ، وهو ما زال يتكلم ، ولا احد يستطيع أن يفهم شيئا مما يقوله ، وكلما تقدم فى الحديث ازداد تعبير وجهه جمودا وغباء .

وصرخت يوليا بصبر نافذ :

ـ « أوه (كيش) ، أسرع بانهاء قصتك . انت تعذبنا ! » .

وصاح كوستيا :

ـ « اسكت يا كيش ، أرجوك ! » .

وضحك الجميع بما فيهم « كيش » نفسه .

ووصل فيودور وقد غطت بشرة وجهه بقع دموية حمراء . وصافح الجميع بسرعة ، ثم أخذ شقيقه ، وذهب الى حجرة المكتب . فقد بدأ فى الفترة الأخيرة يتجنب التجمعات الكبيرة .

وقال وهو يريح نفسه فى مقعد كبير بعيدا عن الضوء :

ـ « دع الشباب يمرحون ، أما أنا وأنت فباستطاعتنا أن نتحدث حديثا هادئا وحدنا ، هيه يا صديقى القديم ، لم أرك منذ زمن بعيد . متى حضرت الى المخزن آخر مرة ؟ منذ أكثر من أسبوع ، أليس كذلك ؟

ـ نعم . فليس هناك ما أستطيع عمله . وبالاضافة الى ذلك يجب أن أعترف بأن العجوز يثير أعصابى .

ـ مؤكد ، فمن الممكن ان يمضى العمل فى المخزن على خير ما يرام

دون حاجة الينا نحن الاثنان ، ولكن يجب على الانسان أن يقوم بعمل ما . فيجب أن تأكل خبزك من عرق جبينك كما تعلم . والله يحب أن يشقى الانسان فى عمله » .

ودخل بيوتر حاملا كوبا من الشاى فوق صينية . فشربه فيودور بدون سكر ، وطلب كوبة أخرى . كان دائما يشرب كميات كبيرة من الشاى ، تصل أحيانا الى عشرة أكواب فى المساء الواحد .

وقال فيودور وهو يقف ويتجه نحو شقيقه :

ــ « اسمع يا الكسى ، لماذا لا ترشح نفسك لمجلس المدينة ؟ بالتدريج ، وشيئا فشيئا سنستطيع أن نجعلك مستشارا ، ثم فيما بعد نائبا للمحافظ . أنت ذكى ومتعلم تعليما حسنا . وفى الوقت المناسب سيلاحظونك ويدعونك الى بطرسبرج ، فكثيرون من قادة المدن والريف قد أصبحوا مشهورين الآن ، ومن يدرى فلعلك قبل أن تبلغ الخمسين تكون قد أصبحت مستشارا ملكيا تضع وشاحا على كتفك » .

لم يقل لابتيف شيئا ، فقد كان يعلم أن فيودور يتمنى هذه الأشياء ــ عضوية المجلس الاستشارى الملكى ، والأوشحة ، وبقية هذه الأشياء كلها ــ كان يتمناها لنفسه ، ولم يدر ماذا يقول .

جلس الشقيقان صامتين . ثم أخرج فيودور ساعته ، وفتحها ، وحدق فيها بثبات وقتا طويلا وكأنه يريد أن يمسك بحركة العقارب. وبدا التعبير المرتسم على وجهه غريبا فى نظر لابتيف .

ودعيا الى العشاء ، فذهب لابتيف الى حجرة الطعام ، أما فيودور فقد ظل فى حجرة المكتب . ولم يحتدم الجدل على العشاء ، وبدلا من ذلك اتخذ بارتسيف نغمة المحاضر :

ــ « المساواة مستحيلة بسبب الاختلافات الطبيعية فى الجو ، والنشاط ، والأذواق ، والأعمار . ولكن الانسان المثقف يستطيع أن

يجعل عدم المساواة غير ضار كما فعل مع المستنقعات والدببة . كلنا نعرف ذلك العالم الذى علم قطة ، وكلبا ، وصقرا ، وعصفورا ، ان تأكل من طبق واحد ، والتعليم فيما نرجو ، سيحقق الشيء نفسه مع الآدميين . ان الحياة تتقدم باستمرار ، والثقافة قد حققت تقدما هائلا ، ولا شك أنه سيأتى وقت يصبح فيه الوضع الحـــالى لعمال المصانع مثلا غير معقول كالعبودية تماما .. حينما كانت بنات الفلاحين يقمن بعمل الكلاب » .

وقال كوستيا وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ــ « سيحتاج الأمر الى وقت طـــويل قبـــل أن يتحقق ذلك . وسيحتاج روتشيلد الى وقت طويل قبل أن يعتبر أقبيته المليئة بالذهب غير معقولة ، وفى هذه الاثناء سيكون على العامل الفقير أن يحنى ظهره ويموت من الجوع . لا يا سيدى ، هذا لا يصلح . يجب الا ننتظر ، يجب أن نقاتل . واذا كانت القطة تأكل فى نفس الطبق كالفأر فهل تعتقد أن هذا معناه انها فهمت الخطأ فى أساليبها ؟ لا شيء من هذا . لقد أجبرت على فعل ذلك » .

وقال لابتيف وهو يحك جبهته :

ــ « أنا وفيودور غنيان ، وأبونا رأسمالى ، مليونير ، وعلى ذلك يجب أن يقاتلنا الناس ! يقاتلونى ــ أنا لا أفهم هذا ، حقا أنا غنى ، ولكن ما الذى كسبته من أموالى ، ما الذى كسبته من هذه القوة ؟ هل أنا أسعد منكم ؟ كانت طفولتى عبودية على طول الخط ، ولم تنقذنى نقودى من الجلد . ونقودى لم تساعد « نينا » حينما مرضت وماتت . واذا لم أكن محبوبا فلن أستطيع اجبار أى انسان على أن يحبنى ولو انفقت ملايين من أجل ذلك » .

وقال « كيش » :

ــ « ولكنك تستطيع أن تصنع خيرا كثيرا » .

ـ كلام فارغ ! لقد طلبت منى أمس أن أساعد عالما رياضيا فى العثور على وظيفة . صدقنى ، أنا لا أستطيع أن أصنع من أجله أكثر مما تستطيع أنت . نعم ، أستطيع أن أعطية نقودا ، ولكن ليس هذا ما يريد ، لقد طلبت مرة من موسيقى مشهور أن يجد عملا لعازف كمان شديد الفقر ، فقال لى : « لو كنت موسيقيا لما طلبت منى هذا أبدا » . وكذلك أستطيع أنا أن أقول نفس الشيء لك : لو أنك عشت مرة فى مكان رجل غنى لما جئت أبدا تطالب منى العون بمثل هذه الثقة » .

وقالت يوليا سيرجيفنا وقد احمر وجهها خجلا :

ـ « لست أفهم وجه الشبه بالمرة ، ما صلة الموسيقى المشهور بالأمر ! » .

وتقلص وجهها بالكراهية ، فأغلقت عينيها بسرعة لتخفيها ، ولكن زوجها وكل من على المائدة لم تفتهم ملاحظة تلك النظرة .

وعادت تقول بصوت منخفض :

ـ « ما دخل الموسيقى المشهور فى الأمر ؟ ان أسهل شيء فى الوجود هو مساعدة رجل فقير » .

وخيم الصمت . وقدم بيوتر الدجاج ، ولكن أحدا لم يمس شيئا من الطعام ، باستثناء بعض المشهيات . وكان لابتيف قد نسى ما قاله بالعمل ، ولم يعد لذلك أهمية على أية حال . فهو يدرك أن الأمر لا يتعلق بكلماته ، فمجرد أنه تكلم فحسب كان أمرا بغيضا اليها .

بعد العشاء ذهب الى حجرة المكتب وجلس هناك ، وظلت ضربات قلبه تتلاحق سريعة وهو ينصت بتركيز شديد للحديث الدائر فى حجرة الطعام وينتظر مزيدا من الاذلال . لقد عادوا الى المناقشة مرة أخرى . ثم جلس بارتسيف الى المعزف ، وأنشد أغنية عاطفية.

كان شخصا متعدد المواهب : يستطيع ان يغنى ويعزف على البيانو ، بل ويقوم بعدد من الألعاب السحرية .

وأعلنت يوليا قائلة :

ـ « أيها السادة ، لست أدرى ما رغباتكم ، ولكنى لا أجد فى نفسى الرغبة فى البقاء فى البيت . فلنذهب الى مكان ما » .

قرروا ان يقوموا بنزهة خارج المدينة ، وارسلوا « كيش » الى نادى التجار ليستأجر زحافة بثلاثة خيـــول . لم يدعوا لابتيف لصحبتهم لأنه لم يكن يخرج فى العادة للنزهة خارج المدينة ، فضلا عن أن شقيقه كان معه ، ولكنه اعتبر ذلك دليلا على انهم يجدونه سخيفا جدا ، وأنه ليس له مكان وسط هذه المجموعة من الشبان المرحين ، وشعر بمرارة للموقف حتى كاد يبكى ، بل لعله كان سعيدا لأنهم يسيئون معاملته ويتجاهلونه ، وانه ليس اكثر من زوج غبى أحمق ، كيس نقود تعس ، بل انه ليمضى الى أبعد من ذلك ليرى أنه من الأفضل لو أن زوجته كانت تخونه ، ولو هربت مع أقرب أصدقائه هذه الليلة نفسها ، ثم اعترفت فيما بعد وعيناها مليئتان بالكراهية .. كان يغار من الجميع ـ من أصدقائها من الطلبة ، والممثلين ، والمغنيين ، من يارتسيف ، بل حتى من المارة أيضا . لكم يتمنى لها لو كانت خائنة ، لكى يضبطها مع شخص ما ويتناول السم وينهى هذا الكابوس البشع .

كان فيودور جالسا يرشف شايه بصوت مزعج ، ولكنه فى النهاية نهض هو الآخر لينصرف ، وقال وهو يرتدى معطفه :

ـ « أخشى أن يكون العجوز قد اقترب من العمى ، فنظره آخذ فى الضعف » .

ارتدى لابتيف معطفه هو الآخر وخرج مع شقيقه ، وصحبه

حتى شارع ستراستونى ، ثم أخذ عربة الى مطعم « اليار » . وأخذ يسخر من نفسه :

ـ « هذا ما يسمونه بالسعادة الزوجية ! حب ، حقا » ..

كانت أسنانه تصطك ، من الغيرة أو من شيء آخر ، لم يكن يدرى . وحين وصل الى المطعم ، تطلع حوله بين الموائد ، وانصت الى المغنى فى الصالة ، وهو يتساءل عما سيقوله لو تصادف وقابل زوجته وأصدقاءها . كان يعلم مقدما أنه لو قابلهم فلن يزيد على الابتسام باشفاق بل وغباء وسيعلم الجميع لماذا حضر . انتابه دوار من الاضواء الساطعة ، والموسيقى العالية ، ورائحة المساحيق التى تملأ الوجوه ، والطريقة التى حدجته بها النساء . وتوقف عند المدخل محاولا أن يرى ويسمع ما يدور فى المقاصير الخاصة ، وأحس أنه والمغنى وهؤلاء النسوة يلعبون معا احدى اللعب الوضيعة . بعد قليل اتجه بالعربة الى مطعم « ستريلنا » ، ولكن زوجته لم تكن هناك أيضا ، ولكنه وهو عائد فى طريقه الى « اليار » مرة اخرى دهمته عربة صاخبة بثلاثة جياد ، واستطاع أن يسمع علاوة على صيحات السائق المخمور الوحشية صوت يارتسيف العالى قائلا :

ـ « هو ! هو ! » .

***

حين وصل أخيرا الى البيت كانت الساعة قد قاربت الرابعة صباحا ، وكانت يوليا قد أوت الى فراشها ، وحين لاحظ أنهـا ليست نائمة ، ذهب اليها وقال بحدة :

ـ « أستطيع أن أفهم احتقارك وكراهيتك ، ولكن باستطاعتك مع ذلك أن تحترمينى أمام الغرباء » .

جلست وخفضت قدميهـا ، وكانت عيناها تبدوان واسعتين داكنتين فى ضوء مصباح الأيقونة . وقالت :

ـ « أنا آسفة ! » .

وقف صامتا ، منفعلا الى درجة لم يستطع معها أن يقول شيئا . وكانت هى الأخرى ترتعد ، وتجلس أمامه شاعرة بالذنب .

قبض على رأسه بيديه وصاح :

ـ « هذا الألم . لا أستطيع احتماله أكثر من ذلك . أعتقد أنى فى طريقى للجنون » .

وصرخت :

ـ « هل تعتقد أن الأمر سهل على ؟ الله وحده يعلم كم أعانى .

ـ أنت زوجتى الآن منذ ستة أشهر ، ومع ذلك فليس فى قلبك شعاع حب نحوى ، حتى ولا بصيص . لماذا تزوجتنى ؟ » .

ومضى لابتيف يقول فى يأس :

ـ « لماذا ؟ أى شيطان دفع بك بين ذراعى ؟ ماذا كنت ترجين ؟ ماذا كنت تريدين ؟ » .

واستمرت تحدق فيه بفزع وكأنها تخشى أن يقتلها ، فى حين واصل هو حديثه وهو يتنفس بصعوبة :

ـ « هل تهتمين بى ؟ هل تحبيننى ؟ لا ! ماذا اذن ؟ ماذا ؟ تكلمى ! » .

ثم صرخ قائلا :

ـ « انها هذه النقود الملعونة ! هذه النقود الملعونة ! » .

بكت ، ورسمت علامة الصليب على صدرها :

ـ « أقسم بالله ان الأمر ليس كذلك ! » .

انكمشت للاهانة ، وكانت أول مرة يسمعها تبكى ، وأخذت تعيد قولها :

ـ « لا ، أقسم بالله ! أنا لم أفكر فى نقودك ، ولا أريدها ، كل ما فى الأمر أنى اعتقدت أنى أخطىء حين أرفضك . كنت أخشى

ان أحطم حياتنا ، حياتك وحياتى . وها انذا الآن أدفع ثمن الخطأ . ولا أستطيع الاحتمال ! » .

أخذت تنتحب بمرارة ، وأدرك كم تعانى ، ولما لم يعرف ماذا يقول ركع على ركبتيه أمامها وتمتم قائلا :

ـ لا « لا تبكى ، لا تفعلى ، لقد أهنتك لأنى أحبك بجنون » .

وفجأة اذا به يقبل قدمها ، ويضمها اليه بشوق شـــديد وهو يتمتم .

ـ « كل ما أطلبه هو شعاع من الحب لا أكثر . اكذبى على ، ارجوك ! اكذبى على ، لا تقولى انه كان خطأ ! » .

ولكنها واصلت بكاءها ، ورأى أنها احتملت قبلاته كعقاب لخطئها لا أكثر . سحبت القدم التى قبلها وثنتها تحتها كالطائر . وفجأة اذا به يشعر بالحزن من أجلها .

استلقت على السرير وسحبت الأغطية فوق رأسها ، وخلع هو ملابسه واستلقى الى جوارها . وفى الصباح كان كل منهما مرتبكا لا يدرى ماذا يقول ، بل وخيل اليه انها لا تطأ بنفس الثبات على القدم التى قبلها .

وقبيل الغداء حضر بانوروف ليودعهمـــا . وتملك يوليا حنين مفاجىء لمدينتها . وقالت لنفسـها ، ما أجمل أن يفر الانسان من هذه الحال المحرجة ، والاحساس المستمر باقتراف الخطأ .

وعلى الغداء تقرر أن تسافر مع بانوروف وتقضى أسبوعين أو ثلاثة مع أبيها .

جلست يوليا سيرجيفنا وبانوروف فى مقصورة وحدهما . وكان بانوروف يرتدى قلنسوة غريبة الشكل مصنوعة من جلد جمل . وقال وهو يتنهد :

ـ « لا ، لست قانعا بالمرة بسانت بطرسبورج . ولدى وعود كثيرا جدا ولكن لا شيء محدد . نعم يا عزيزتى . لقد عملت قاضى مصالحات وعضوا دائما فى المحكمة الريفية ثم رئيسا لها ، وفى النهـــاية مستشارا فى الحكومة المحلية ، لقد خدمت بلادى بجد ، وأعتقد انى جدير بشيء من التقدير . ومع ذلك فها أنت ترينني عاجزا عن الفوز بالنقل الى مدينة أخرى » .

وأغلق عينيه وهز رأسه ، ومضى يقول فى فتور :

ـ « انهم لا يقدروننى . طبعا ، لست اداريا ممتازا ، ولكننى شريف وذو ضمير ، وهاتان صفتان نادرتان هذه الأيام . أعترف أنه من المحتمل أنى كنت غير وفى بعض الشيء مع النساء ، ولكنى فى علاقاتى بالحكومة الروسية كنت مهذبا دائما » .

ثم عاد يقول وهو يفتح عينيه :

ـ « ولكن كفانا حديثا عن هذا . لنتحدث عنك أنت . ما السبب فى هذه الزيارة المفاجئة لوالدك ؟ » .

وأجابت يوليا وهى تتطلع الى قلنسوته :

ـ « آه ، مجرد سوء تفاهم بسيط مع زوجى » .

ــ نعم ، انه غريب بعض الشيء . كل أفراد أسرة لابتيف هكذا . ان زوجك ليس بالغ السوء ، ولكن شقيقه فيودور هذا ، انه أحمق بالفعل » .

تنهد بانوروف ثم سأل باهتمام :

ــ « هل لك عشيق ؟ » .

فنظرت اليه يوليا فى دهشة ثم ضحكت :

« يالله ، ما أغرب ما قلت ! » .

فى حوالى الساعة الحادية عشرة نزلا فى احدى المحطات الكبيرة وتعشيا معا فى مطعم المحطـــة . وحين عادا الى مقصورتهما خلع بانوروف معطفه وقلنسوته وجلس الى جوار يوليا ثم بدأ يقول :

ــ « يجب أن أقول انك جميلة جدا . واغفرى لى هذه المقارنة الرخيصة ، ولكنك تذكريننى بخيارة صغيرة هشة حديثة التمليح ، ما زالت محتفظة بعبير الحقل ، ومع ذلك فهى تحوى بالفعل قليلا من الملح ونكهة البهارات . لديك كل هبات امراة شديدة الروعة ، امرأة فاتنة رشيقة » .

وتنهد ثم قال :

ــ « لو أننا سافرنا معا منذ خمس سنوات لوجدت من واجبى السعيد أن انضم الى موكب المعجبين بك ، أما الآن ، وا أسفاه ، فأنا عليل » . .

وابتسم ابتسامة حزينة ، ولكنها متلطفة مع ذلك ، ثم وضع ذراعه حول خصرها . شهقت يوليا واحمر وجهها ، وكادت تفقد وعيها من الفزع :

ــ « جريجورى نيكولاييفتش ، ابتعد عنى ! » .

فسألها برقة :

ـ « ماذا تخشين يا عزيزتى ؟ ماذا حدث ؟ كل ما فى الأمر أنك لم تتعودى على ذلك بعد » .

كان كلما قاومت امرأة محاولاته اعتبر ذلك ، بمنتهى الثقة ، دلالة على فوزه بها لا أكثر . وعلى ذلك فقد أمسك يوليا من خصرها بقوة ، وقبلها على خدها ، ثم فى شفتيها ، وهو واثق تمام الثقة بأنه يمنحها أقصى سعادة ممكنة . اما وقد تخلصت يوليـــا من فزعها وارتباكها فقد شرعت تضحك .

قبلها مرة أخرى ، ثم ارتدى قلنسوته المضحكة وهو يقول :

ـ « هذا كل ما تستطيعين توقعه من رجل عليل . يحكى أنه كان هناك باشا تركى ، رجل عجوز لطيف ، أهدوه حريما كاملا ، أو ورثه ، لا أذكر أيهما . وحينما كانت زوجاته الصغيرات الجميلات يقفن أمامه صفا ، كان يمر بالصف ويقبل كل واحدة منهن فى دورها وهو يقول : « هاك ، هذا كل ما أستطيع ان اعطيه لك الآن . وهذا ما أقول انا أيضا » .

بدا لها كل ذلك شاذا وسخيفا ، ولكنها وجدته مسليا مع ذلك . وأحست بالرغبة فى العبث ، فوقفت على المقعد وهى تترنم بصوت خافت ، وأخذت علبة حلوى من فـــوق الرف ، وقذفته بقطعـــة من الشكولاتة وهى تقول :

ـ « امسك ! » .

التقط بانوروف قطعة الشكولاتة ، فقذفته يوليا بقطعة أخرى وهى تضحك بمرح ، ثم بثالثة التقطها جميعا وحشرها فى فمه ، وهو يحدق فيها متوسلا . ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى أن ثمة شيئا فى وجهه وسلوكه مخنثا وطفوليا الى أبعد حد . وحين عادت الى الجلوس لاهثة الأنفاس وواصلت تأمله باستمتاع ، لمس خدها بأصبعه وقال فى خيبة أمل ساخرة :

ـ « لماذا ، ايتها الطفلة الشقية ! » .

وقالت وهى تقدم له العلبة :

ـ « خذ هذا ، لست مغرمة بالحلوى » .

التهم بانوروف الحلوى كلها ، ثم وضع الصندوق الفارغ فى حقيبته فقد كان به ضعف خاص نحو العلب ذات الرسوم . وقال :

« والآن كفانا هذرا . لقد حان وقت نوم الرجل العليل » .

واخرج رداءه المنزلى المصنوع من حرير « بخارى » ، ووسادة ، وتمدد وتغطى بالرداء وهمس وهو يتنهد وكأن كل جسده يؤلمه :

ـ « أسعدت مساء يا حلوتى » .

وبعد بضع دقائق كان شخيره قد ارتفع . ودون أن تشعر يوليا بأقل خجل تمددت هى الأخرى وسرعان ما راحت فى النوم .

***

فى صباح اليوم التالى حين أخذت يوليا طريقها من المحطة الى بيتها كانت شوارع بلدتها تبدو مهجورة ، الجليد رمادى ، والمنازل ضئيلة ومسطحة بشكل ما . وفى طريقها مرت بموكب جنائزى ، وشهدت تابوتا مفتوحا فوق صندوقه تحيط به رايات الكنيسة ، فقالت لنفسها :

ـ « يقولون ان لقاء جنازة فأل حسن » .

ولاحظت على المنزل الذى كانت تسكنه نينا فيودروفنا لافتات كتب عليها « للبيع » .

دخلت يوليا فناء بيتها وقد أسرعت خفقات قلبهـــا ، ودقت الجرس . فتحت الباب خادمة جديدة ، فتاة سمينة فى عينيها آثار النوم ، وعلى جسدها سترة من اللباد السميك . وبينما يوليا تصعد درجات السلم التى أصبحت الآن قذرة غير مكنوسة ، تذكرت

أنه هنا طلب لابتيف الزواج منهـا . وفى الممر البارد فى الدور العلوى كان مرضى أبيها ينتظـــرون دورهم ، وقد تكوموا داخل معاطفهم الثقيلة . ولسبب ما أسرعت دقات قلبها وشعرت بفتور فى أطرافها .

كان الطبيب يحتسى الشاى ، وقد أصبح سمينا أكثر من أى وقت مضى ، وأصبح وجهه أحمر كقالب الطوب ، وترك شــعره غير ممشط . لقد كانت هى الفرحة الوحيدة فى حياة ذلك الشيخ ــ وفى اندفاعة عاطفية عانقته بحرارة وقالت أنها جاءت لتقيم معه فترة طويلة ، حتى عيد الفصح . وبعد أن غيرت ملابسها جاءت الى حجرة المائدة لتناول الشاى ، ولكنه ظل يذرع الحجرة جيئة وذهابا وهو يتمتم « رو ــ رو ــ رو » ، علامة على أن شيئا ما لا يعجبه .

ثم ما لبث أن قال :

ــ « انك تعيشين حياة مرحة فى موسكو ، وأنا شديد السعادة من أجلك . أما بالنسبة لى ، فماذا يمكن أن يحتاج رجل عجوز مثلى ، سرعان ما سأنفق فيرتاح الجميع اكثر . الشىء العجيب أن جسدى قوى بصورة شيطانية ، وما زلت اعيش ! شىء مذهل ! » .

وقال انه حمار شغل عجوز وقوى يمتطيه الجميع ، وانه هو الذى قام بعلاج نينا فيودروفنا قبيل وفاتها ، ورعى طفلتيها ، ورتب الجنازة بالاضافة الى ذلك ، وأن ذلك الخليع بانوروف رفض القيام بأى شىء ، بل وأكثر من ذلك اقترض منه مائة روبل ، لم يردها حتى الآن .

وأضاف الطبيب :

ــ « من الأفضل أن تأخذينى الى موسكو وتضعينى فى مصحة للأمراض العقلية . انا رجل مجنون ، طفل ساذج لأنى ما زلت اومن بالحق والعدل ! » .

ومضى بعد ذلك يلوم زوجها لأنه قصير النظر هكذا ، لا يشترى منازل وقد أصبحت رخيصة .

زايل يوليا احساسها بأنها الفرحة الوحيدة فى حياة هذا الرجل العجوز . وبينما كان يستقبل مرضاه ويقوم بجولاته ، كانت هى تتجول بلا هدف فى كل الحجرات . احست بشيء من الغربة فى بلدتها وبيتها ، ولم تكن لديها أى رغبة فى الخروج أو زيارة أحد ، وحين فكرت فى صديقات صباها ، وفى حياتها قبل الزواج لم تشعر بأى حزن ولا ندم .

وفى المساء ارتدت أفضل أثوابها وذهبت لحضور الصلاة . ولكن لم يكن فى الكنيسة سوى قوم بسطاء ، ولم يحدث معطفها الرائع المصنوع من الفراء ، ولا قبعتها أى أثر . وبدا لها أن شيئا ما قد تغير فى الكنيسة وفيها هى نفسها على السواء . لكم كانت تحب الاستماع الى قراءة التراتيل أثناء الصلاة ، والجوقة وهى تردد الأناشيد وبخاصة : « ها أنذا أرفع صوتى » ، ثم تتحرك بعد ذلك ببطء وسط الجمع متجهة الى منتصف الكنيسة حيث يقف القس ، وتستشعر مس الزيت المقدس لجبهتها . أما الآن فهى تتوق الى أن تنتهى الصلوات ، وبينما هى تخرج من الكنيسة تمنت فقط لو أن المتسولين لم يسألوها احسانا ــ فسيكون من المزعج أن تتوقف لتبحث فى جيوبها ، فضلا عن أنها لم تعد تحمل الآن عملة نحاسية فى جيوبها ، بل روبلات فقط .

فى تلك الليلة أوت الى فراشها مبكرة ، ولكنها ظلت مستيقظة مدة طويلة . وحينما نامت حلمت ببعض الصور وبموكب الجنازة الذى شاهدته فى الصباح ، وحلمت أنهم أدخلوا النعش المفتوح الى الفناء ، وظلوا يؤرجحونه فترة طويلة ، ثم فجاة اذا به يصطدم بالباب . استيقظت من نومها وقفزت من الفراش فزعة . وأسفل

كان شخص ما يطرق الباب ، وكان السلك الممتد من جرس الباب يحتك بالحائط ، ولكن الجرس لا يرن .

وسمعت الطبيب يسعل والخادمة تهبط السلم ثم تعود .
وسمعت طرقة على بابها وصوت الخادمة يقول :

ـ « سيدتى ، سيدتى ! » .

وسألت يوليا :

ـ « ماذا حدث ؟ » .

ـ « برقية لك ! » .

أخذت يوليا شمعة وخرجت الى الممر . كان الطبيب يقف خلف الخادمة وقد ألقى بمعطف فوق قميص نومه ، وكان هو الآخر ممسكا بشمعة . وقال وهو يتثاءب :

ـ « أن الجرس تالف ، كان يجب أن أصلحه من زمن بعيد » .

فتحت يوليا البرقية وقرأت :

« كنا نشرت فى صحتك » .

« يارتسيف ، كوتشيفوا » .

فقالت :

ـ « يا لهم من حمقى ! » .

وانفجرت ضاحكة . وشعرت فجأة بخفة فى قلبها ومرح .

وحين عادت الى حجرتها اغتسلت ببطء وارتدت ملابسها ، وأمضت بقية الليل تحزم ثيابها .

وظهر اليوم التالى سافرت الى موسكو .

ـ ١٢ ـ

ذات يوم أثناء أسبوع عيد الفصح ، ذهبت أسرة لابتيف لزيارة معرض تصوير فى مدرسة الفنون . وكالعادة المتبعة فى موسكو ذهبت الأسرة كلها بما فيها الطفلتان ومربيتهما وكوستيا .

وكان لابتيف يعرف أسماء جميع الفنانين المشهورين ولم يفته معرض أبدا . وأحيانا كان يرسم بعض المنـاظر الطبيعية بنفسه أثناء عطلاته الصيفية فى الريف ، وكان يعتقد أنه يتمتع بقدر كبير من الذوق الفنى ، وأنه لو درس الفن لكان من الممكن أن يصبح فنانا مجيدا . وحين يسافر الى الخارج كان يمر بحوانيت التحف ، ويفحص الأشياء بحركات الخبير ، ويعبر عن رأيه ، ثم يشترى فى النهاية شيئا ، يطلب فيه صاحب الحانوت اى ثمن يتخيله ، فيدفعه لابتيف ، ويظل الشيء المشترى بعد ذلك ملقى بلفافته فى صندوق العربة حتى يختفى ولا يعلم أحد اين ذهب . أو قـد يذهب الى حانوت لبعض الحفارين ويدرس بعناية المطبوعات أو قطع النحاس المحفور ، ويعلق على دقـة الصنع ، ثم يشترى اطارا رخيصا أو صندوقا من الورق لا نفع فيه ــ وكل الصور فى بيته من الحجم الكبير ولكنها رديئة فى الأغلب ، وما لديه من لوحات جيدة معلقة باهمال . وكثيرا ما دفع مبالغ طائلة فى لوحات ثبت فيما بعد انها نسخ مشوهة . أما ما يستلفت النظر حقا ، فهو أنه بالرغم من حيائه الشديد فى معظم الأمور ، يصبح فى معارض الفن جريئا وواثقا بنفسه بصورة غير عادية .

تفحصت يوليا سيرجيفنا اللوحات مثلما فعل زوجها ، من خلال منظار الأوبرا أو قبضة يدها المضمومة ، وأبدت اعجابها لأن الناس فى الصورة يبدون وكأنهم أحياء ، وان الاشجار تبدو وكأنها أشجار حقيقية . ولكن معظم الصور كانت تبدو متشابهة فى نظرها ، وهى تعتقد ان الهدف الوحيد للفن هو أن يجعل الناس والأشياء فى الصورة تبدو حقيقية حين تغلق احدى عينيك وتنظر اليهم من خلال قبضة يدك المضمومة .

وأخبرها زوجها قائلا :

« هذه غابة شيشكين ، انه لا يشير الى أى شىء آخر . انظرى الى هذاالجليد ! ان الجليد لا يكون أبدا بنفسجيا هكذا ... وهذا الفلام ذراعه اليسرى أقصر من ذراعه اليمنى » .

وفى النهاية حينما كانوا جميعا قد أنهكوا تماما ، ولابتيف قد ذهب للبحث عن كوستيا حتى يستطيعوا العـــودة الى البيت ، توقفت يوليا أمام منظر طبيعى صغير ونظرت اليه بلا اكتراث . كان فيه نهر صغير فوقه جسر خشبى ، والمر فى الضفة الأخرى يتلاشى وسط مروج داكنة تحف بها غابات الى اليمين . وكان هناك أيضا معسكر نار من الواضح أنه من صنع بعض الرعاة ، وكان الدخان لا يزال يتصاعد الى السماء عند الأفق .

وتصورت يوليا نفسها تسير على الجسر ، ثم فى ذلك المر وتتقدم فى ذلك الشفق الهادىء حيث الطيـــور البرية تنعق فى نعاس ، وتتوهج نار على البعد . وبدت لها تلك السحب ، وكذلك هذه الغابة والمروج أيضا ، بدت لها مألوفة بشكل غريب ، لقد رأتها مرات كثيرة من قبل منذ زمن بعيد ، وســـيطرت عليها وحشة غريبة ، وأرادت أن تسير فى ذلك المر وتبتعد متجهة نحو الغروب وذلك الشريط الغامض من السماء .

وقالت وقد ادهشها اكتشافها أنها فهمت اللوحة :

ـ « يا لها من صورة رائعة . انظر يا الكسى ! الا تستطيع الاحساس بالهدوء الذى يغلب عليها ؟ » .

حاولت أن تشرح لماذا أعجبها المنظر الطبيعى ، ولكن لا زوجها ولا كوستيا استطاعا أن يفهماها . ظلت تحدق فى المنظر الطبيعى بابتسامة حزينة ، وقد احست بالضيق ، لأنه لا احد سواها وجد فيه شيئا يستحق الاهتمام . وعادت تجوب الصالات تنظر الى اللوحات مرة أخرى ولم تعد تراها متشابهة هذه المرة . وحين عادت الى البيت جذبت انتباهها لأول مرة اللوحة الكبيرة المعلقة فوق المعزف فى حجرة الاستقبال . فقالت فى تحول مفاجىء :

ـ « لماذا يرغب الناس فى امتلاك مثل هذه اللوحات ! » .

بعد ذلك أصبحت الأطر المزخرفة ، والمرايا الايطالية ذات الرسوم النباتية ، وبقية اللوحات المشابهة للوحة المعلقة فوق المعزف ، كل ذلك فضلا عن مناقشات زوجها وكوستيا حول الفن ، أصبحت تملؤها بالاشمزاز والضيق ، بل والكراهية احيانا ..

***

مضت الحياة بيوليا رتيبة يوما بعد آخر دون شىء تتطلع اليه . وانتهى الموسم المسرحى ومال الجو الى الدفء . ومرت فترة طويلة رائعة الجو .

ذات صباح ذهب افراد أسرة لابتيف الى محكمة الحى ليسمعوا كوستيا يترافع دفاعا عن جندى محال الى الاستيداع اتهم بالاقتحام والسرقة . وقد غادروا المنزل متأخرين بعض الشىء ، وحين وصلوا الى المحكمة كان الشهود يستجوبون . كان هناك عدد كبير من الشهود ، من الغسالات ، وقد شهدت بأن المتهم كثيرا ما زار معلمتهن صاحبة المغسل . وفى الليلة السابقة ليوم الصليب المقدس

ظهر المتهم فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر ، وطلب نقودا ليشرب مزيدا من الخمر ولكن طلبه رفض . وبعد ما يقرب من ساعة عاد حاملا جعة وكعكا مملحا للبنات ، وقضوا جميعا الليلة معا يشربون ويغنون . وفى الصباح اكتشفن ان باب الطابق العلوى قد كسر وأن هناك ثلاثة قمصان رجالى وفستانا وملاءتين قد سرقت من على حبل الملابس . وبابتسامة ساخرة سأل كوستيا كلا من الشاهدات على حدة اذا كانت قد شربت شيئا من الجعة التى أحضرها المتهم ليلة الصليب المقدس . وكان من الواضح أنه يحاول أن يثبت ان الغسالات هى اللائى سرقن الملابس بأنفسهن ، ثم ألقى مرافعته دون أقل تعبير عن الانفعال ، وقد ثبت عينيه بصرامة على هيئة المحلفين طوال الوقت .

وشرح كوستيا الفرق بين السرقة بالاكراه وبين السرقة العادية . تحدث باهتمام وباستفاضة كبيرة ، مستعرضا موهبة ممتازة فى المناقشة بهيئة جادة فيما أصبح مسلما به منذ زمن بعيد . ومع ذلك فقد كان من الصعب أن تفهم فيم كل ذلك . وكانت النتيجة الوحيدة التى قد يخرج بها عضو المحلفين من خطبته أنه قد حدث اكراه ولم تحدث سرقة ، ما دام الغسيل المسروق قد ذهب فى شراء الجعة التى شربتها الغسالات ، وأنه لو حدثت سرقة ، فانها تكون عندئذ بلا اكراه . ولكن من الواضح ان كل ذلك كما ينبغى أن يكون ، لأن كلا من المحلفين والجهور بدوا شديدى التأثر بخطبته ، وكان ذلك نجاحا كبيرا . وحينما عادت المحكمة الى الانعقاد وأعلن الحكم بالبراءة ، هزت يوليا رأسها لكوستيا ثم صافحته بحرارة بعد ذلك .

***

وفى مايو رحلت اسرة لابتيف الى منزلها الريفى فى سوكولينكى. حينذاك كانت يوليا قد أصبحت حاملا .

١٣

بعد مرور أكثر من عام ، كانت يوليا ويارتسيف جالسين على العشب فى سوكولنيكى غير بعيد من خط سكة حديد ياروسلافل . وكان كوستيا ممددا على بعد أقدام قليلة منهما ، وقد أراح راسه على ذراعيه وأخذ يحدق فى السماء . كانوا جميعا قد أرهقهم المشى ، وهم ينتظرون الآن مرور قطار الساعة السادسة قبل أن يعودوا الى البيت لتناول الشاى .

وكانت يوليا تقول :

ـ « الأمهات يعتقدن دائما أن أطفالهن نابهون ، وهذا طبيعى تماما . انهن يستطعن الوقوف امام مهد طفلهن بالساعات يحدقن فى أذنيه الصغيرتين ، وعينيه وأنفه . والمسكينة منهن تعتقد ان تقبيل ابنها يهب كل شخص أعظم سعادة فى الوجوه ، ولا تستطيع أن تتحدث عن شىء آخر غير طفلها . أنا أعرف هذا الضعف فى الأمهات وأحاول أن أراقب نفسى ، ولكن صفيرتى أولجا نابهة حقا . لهـا وجه صغير شديد الذكاء ، ما أروعها حين ترضع ! وما اجملها حين تضحك ان عمرها ثمانية أشهر فقط ومع ذلك فلم أر حتى الآن طفلا فى الثالثة له مثل عينيها الذكيتين » .

وسألها يارتسيف :

ـ « بالمناسبة خبرينى ، من تحبين أكثر ، زوجك او طفلتك ؟ » .

ـ وهزت يوليا كتفيها بلا مبالاة وقالت :

– « لا أعلم . لم يحدث فى يوم من الأيام انى أحببت زوجى كثيرا. الواقع ان أولجا هى حبى الأول . أنت تعلم انى لم أكن أحب ألكسى حين تزوجته . كنت شديدة الحمق وقتئذ ، وقاسيت الكثير لأنى اعتقدت أنى دمرت حياته وحياتى ، ولكنى الآن فهمت أن الحب ليس مهما الى هذا الحد ، انه عبث كله .

– ولكن ما الذي يربطك بزوجك اذا كنت لا تحبينه ؟ لماذا تعيشين معه ؟

– لا أعلم .. العادة ، على ما أعتقد . انى أحترمه ، وافتقده حين يغيب كثيرا ولكن هذا ليس الحب . انه رجل ذكى ، وشريف ، وفى هذا ما يكفى كى أشعر بالسعادة . وهو طيب جدا ، وكريم .. » .

وتلعثمت الكلمات فى فم كوستيا وهو ينهض من رقدته بكسل :

– « ألكسى ذكى ، ألكسى طيب ، ولكن يا فتاتى العزيزة يجب أن يبتلع الانسان ثلاثة أرطال من الملح معه حتى يكتشف الى اى حد هو ذكى وطيب ومهم . وبالاضافة الى ذلك ، ما فائدة طيبته وذكائه ؟ انه يعطيك نقودا كما تريدين ، هذا يستطيعه ، ولكن حينما يتطلب الأمر شيئا من الحزم ، حين يتعلق الأمر بالتعامل مع المجرمين والأوباش اذا به يدخل قوقعته . ان الرجال من أمثال زوجك ألكسى قوم رائعون ، ولكنهم لا يساوون شيئا كمقاتلين . وهم بصفة عامة ليسوا ممتازين فى أى شىء » .

وأخيرا ظهر القطار .. واندفع بخار قرمزى من المدخنة انتشر فوق الغابات ، وبدت نافذتان فى العربة الأخيرة شديدتا التوهج تحت أشعة الشمس بحيث تغشى العين من النظر اليهما .

وقالت يوليا وهى تنهض :

– « موعد الشاى ! » .

كان جسمها قد امتلأ فى الفترة الأخيرة ، واصبحت تسير فى

شيء من التراخى الخفيف شأن المرأة الناضجة .

وقال يارتسيف وهو يسير خلفها :

ـ « نفس الشيء ، الحياة سيئة دون حب . اننا نتحدث كثيرا جدا ونقرأ كثيرا جدا عن الحب ، ولكن ما أقل ما نحب نحن أنفسنا ، وهذا أمر سيىء » .

وقالت يوليا :

ـ « كل هذا كلام فارغ . والسعادة ليست هكذا » .

تناولوا الشاى فى الحديقة الصغيرة حيث نمت أزهار الخزامى والطباق والخيرى ، وحيث بدا يزهر النرجس البرى . واستطاع كل من يارتسيف وكوتشيفوا أن يريا من وجه يوليا سيرجيفنا أنهـا فى حالة من الرضا السعيد ، وأنها لا تتطلع الى شيء أكثر ممـا لديها ، وأحسا أيضا وهما ينظران اليها بالوئام مع العالم . كل ما قيل كان ذكيا وفى صميم الموضوع . وكانت أشجار الصنوبر رائعة ، وعبير الراتينج أقوى من المعتاد ، وكانت القشدة ممتازة ، وساشا فتاة حلوة ..

بعد الشاى دخلوا الى المنزل ، وأنشـــد يارتسيف بعض أغانى الحب ، مصاحبا نفسه بالعزف على البيانو ، وبين الحين والآخر كانت يوليا تقوم وتخرج من الحجرة على أطراف أصـــابعها لترى الطفلة و « ليدا » ، والأخيرة كانت طريحة الفراش مصابة بالحمى ولم تأكل شيئا منذ يومين ..

غنى يارتسيف :

ـ « يا حبى ، يا حبى الغالى » .

ثم أعلن وهو يهز رأسه :

ـ « لا يا أصدقائى ، قولوا ما تشاءون ، ولكنى لا افهم لماذا تعترضون على الحب ! لو انى لم أكن مشغولا خمس عشرة ساعة

كل يوم لكان من المؤكد أن أحب » .

وقدم العشاء فى الشرفة . وكانت ليلة دافئة هادئة ، ولكن يوليا تدثرت بوشـــــاح صوفى واشتكت من الرطوبة . وحين حل الظلام ، بدأت تشعر بالقلق ، وظلت ترتجف ، وتحث ضيوفها على البقاء مدة أخرى . أمرت الخدم باحضار نبيذ ، وبعد العشاء كونياك. ولم تكن تريد أن تترك وحدها مع الخدم والأطفال وقالت :

ـ « أنا وجيرانى نستعد لتقديم مسرحية للأطفـــــال هنا فى الريف لدينا كل ما نحتاج اليه ـ مسرح ، وممثلون ، كل ما ينقصنا هو المسرحية . وقد تلقينا حوالى عشر أو عشرين مسرحية من كل نوع ، ولكن ليس من بينها واحدة مناسبة » .

ثم التفتت الى يارتسيف :

ـ « أنت تحب المسرح ، وتعرف التاريخ معرفة جيدة ، فهل تستطيع أن تكتب لنا مسرحية تاريخية ؟

ـ لا مانع لدى .. » .

اتى الضيفان على الكونياك كله ، واستعدا للانصراف . وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ، وهى ساعة متأخرة بالنسبة للريف .

وقالت يوليا وهى توصلهما حتى البوابة :

ـ « ما أحلك الظلام ، أنا لا أستطيع رؤية شىء ! لست أدرى كيف ستهتديان الى طريق العودة . يالله ، ان الجو بارد ! » .

شدت وشاحها أكثر حول جسدها ، ثم عادت الى البيت ، واتبعتها صوتها قائلة :

ـ « لابد أن الكسى يلعب الورق فى مكان ما ، طابت ليلتكما ! » .

بعد الحجرات ساطعة الضوء ، لم يستطع يارتسيف وكوستيا أن يريا شيئا ، فأخذا يتحسسان طريقهما عشوائيا الى قضيب السكة الحديد واجتازاه .

وانفجر كوستيا قائلا وهو يتوقف ليحدق فى السماء :

ـ « لا أستطيع أن أرى أى شيء ، ولكن انظر الى النجوم ، انها أشبه بقطع جديدة لامعة من فئة الخمسة عشر كوبك ! » .

وجاء صوت يارتسيف من وسط الحلكة قائلا :

ـ « ماذا ؟

ـ أقول ان الظلام حالك . اين أنت ؟ » .

تقدم يارتسيف وهو يصفر ، وجذبه من ذراعه . وفجأة زار كوستيا بأعلى صوته :

ـ « هاى ، أنتم أيها القوم الطيبون ، لقد قبضوا على أحد الاشتراكيين ! » .

كان دائما شديد الضجيج كلما احتسى شيئا من الخمر ، فيصيح كثيرا ، ويفتعل المشاجرات مع رجال البوليس وسائقى العربات ، ويغنى ويهدر بالضحك . وعاد يزأر :

ـ « الطبيعة ، فليأخذك الشيطان ! » .

واعترض يارتسيف :

ـ « وماذا بعد ذلك . كف عن هذا بالله عليك » .

ومالبثت عيونهما أن ألفت الظلمة ، وبدأت أشباح أشجار الصنوبر وأعمدة التلغراف تتميز أمامهما .. وبين الحين والآخر كانت قاطرة تصفر فى أفنية محطة موسكو ، وأخذ التلغراف يطن بوضوح . ولكن صوتا واحدا لم ينبعث من الغابات ، وكان ثمة شيء معتز قوى ومبهم يحيط بذلك الصمت ، وبدت أطرف الصنوبر وكأنها تمس أطراف السماء . وعثر الصديقان على طريقهما وسارا فيه . كان الظلام هنا شاملا ، ولولا شريط السماء الرفيع المرصع بالنجوم وملمس الأرض الرطبة تحت أقداهما لما استطاعا أن يعرفا أنهما فى الطريق الصحيح . سارا جنبا الى جنب دون حديث ، وخيل

اليهما أن ثمة شخصا يتجه نحوهما فى الظلام . وبدأ تأثير الخمر يتلاشى . وخطر ليارتسيف ان هذه الغابات ربما كانت مسكونة بأرواح قياصرة موسكو ، وفرسان وبطاركة ، وأراد أن يخبر كوستيا بذلك ولكنه عدل .

وحينما وصلا الى مداخل المدينة كانت أول اشعاعات النهار قد مست السماء . مرا أمام حوانيت الأطر الرخيصة ، والحانات ، وساحات الأخشاب ، وتحت جسر السكة الحديد حيث لفحتهما نسمة رطبة معطرة برائحة ازهار الليمون الجميلة ، ثم خرجا الى شارع طويل عريض مهجور تمــــاما ومظلم .. وحينما وصلا الى « ردبوند » كان النهار قد أشرق فعلا ..

وبينما هما يمران أمام دير الكسيفيسكى قال يارتسيف :

ــ « ما زال أمام موسكو الكثير من الآلام ! » .

ــ ما الذى جعلك تفكر فى ذلك ؟

ــ آه ، لا أدرى ، أنا أحب موسكو » .

لقد ولد كل من يارتسيف وكوستيا فى موسكو ، وأحباها وكانا لسبب ما متحيزين ضد المدن الأخرى . كانا مقتنعين بأن موسكو مدينة عظيمة ، وبأن روسيا بلاد عظيمة . وفى القرم ، أو القوقاز ، أو خارج البلاد ، كانا يشعران بالملل والضيق ، وكانا يعتقدان انه ليس هناك جو أصح ولا أمتع من جو موسكو المقبض . فمثل هــذه الأيام ، حين يطرق المطر البارد زجاج النوافــــذ ويهبط الغسق مبكرا ، وتصبح جدران البيوت والكنائس بنية داكنة ، ولا تعرف ماذا ترتدى حين تريد الخروج .. مثل هذه الايام كانت تبدو سارة فى نظرهما .

وأخيرا وصلا الى المحطة واستأجروا عربة ، وقال يارتسيف :

ــ « ماذا لو كتبت فعلا مسرحية تاريخية ولكن بدون آل ليابونوف

ولا آل جودونوف ، أتعرف شيئا جديدا من فترة حكم ياروسلاف أو مونوماخ . فأنا أزدرى كل المسرحيات التاريخية الروسية باستثناء مونولوج « بيمين » . ان المصادر التاريخية ، وحتى كتب التاريخ الروسية تجعل كل شيء فى روسيا يبدو موهوبا وساحرا بصورة غير عادية ، ولكنى حين أرى مسرحية تاريخية أجد الحياة الروسية تصدمنى بأنها سخيفة وغير صحية ولا أثر فيها للأصالة » .

افترق الصديقان بالقرب من دميتروفكا واتجه يارتسيف بالعربة الى بيته فى شارع نيكيتسكايا . جلس ناعسا فى مقعده يتأرجح من جانب الى آخر ويفكر فى المسرحية التى سيكتبها . وفجأة خيل اليه أنه سمع ضجة مخيفة ، قرقعة درع وصيحات بلغة غريبة قد تكون لغة « كالموك » ، ورأى قرية يلفها اللهب ، والغابات المحيطة بها مغطاة بجليد أبيض أشد اكفهرارا من النار ، رآها واضحة حتى أن كل شجرة من أشجار الشربين الصغيرة كانت تقف وحدها منفصلة عن غيرها . واجتاح القرية رجال متوحشون على ظهور الخيول وراجلين ، وكان الرجال والخيول مكفهرين كالسماء .

وقال يارتسيف لنفسه :

ــ « البولوفتسى » .

كان أحدهم عجوزا ذا وجه دموى مخيف ، وجسد مغطى بالحروق ، وكان يربط الى سرج حصانه فتاة شابة ذات وجه روسى أبيض . وكان العجوز يصرخ بوحشية والفتاة تحدق أمامها بعيون حزينة متأملة .. ثم هز يارتسيف نفسه واستيقظ وترنم بأغنيته :

ــ « يا حبى ، يا حبى العزيز » .

ونقد سائق العربة ثم صار صاعدا الى شقته ، وان لم يستطع مع ذلك أن يبعد الحلم عن رأسه ، فرأى اللهب ينتشر فوق القرية ، والغابة تدخن وأشجارها تقرقع ، وثمة خنزير وحشى جن من الفزع

فاندفع الى القرية .. والفتاة المربوطة الى سرج الفرس ، تحدق الى الأمام .

حين دخل حجرته كان النهار قد أضاء تماما . وكانت هنـــاك شمعتان تحترقان على المائدة بجوار نوتة موسيقية مفتوحة . وكانت راسودينا مرتدية ثوبها الأسود وقد اســـتغرقت فى النوم فوق الأريكة وفى يدها جريدة . كان من الواضح انها ظلت تعزف مدة طويلة وهى تنتظره ، ثم راحت فى النوم ، وقال لنفسه :

ـ « هذه المخلوقة المسكينة ، لابد أنها مرهقة » .

أخذ الجريدة من يدها برفق ، وغطاها بملاءة ، ثم نفخ الشمعتين وذهب الى حجرة نومه . ودخل فى سريره وهو لا يزال يفكر فى المسرحية التاريخية ، وظلت اغنية « يا حبى ، يا حبى العزيز » تتردد فى أذنيه .

***

بعد يومين مر عليه لابتيف بضع دقائق ، ليخبره أن « ليدا » كانت مريضة بالدفتريا ، وان يوليا سيرجيفنا والطفلة الصغيرة قـد أصيبتا بالعدوى منها ، وبعد خمسة أيام أخرى جاءت الأخبار بأن « ليدا » ويوليا تتماثلان للشفاء ، ولكن الطفلة ماتت ، وأن أسرة لابتيف أسرعت بالعودة الى المدينة .

- ١٤ -

لم يعد لابتيف الآن يحتمل البقاء فى المنزل أى فترة من الوقت . وكثيرا ما انسحبت زوجته الى الجانب الآخر من البيت بدعوى أن تعطى درسا للفتاتين ، ولكنه كان يعلم أنها تذهب الى هناك لتبكى فى حجرة كوستيا . وفى اليوم التاسع ، واليوم العشرين ، واليوم الأربعين بعد وفاة الطفـــلة كان عليهم أن يذهبوا الى مقــــابر الكسيفيسكى ليؤدوا صلوات الذكــــرى ، وتلت ذلك بالنسبة للابتيف أيام طويلة من الحداد والتفكير فى لا شىء ســوى الطفلة المسكينة ، والتفوه بكل أنواع العبارات المألوفة لمواساة زوجته . وأصبح الآن لا يزور المخزن الا نادرا ، وتفرغ للأعمـــال الانسانية مخترعا مختلف أنواع المشاغل لنفسه ، ومرحبا بأى عذر ليقضى يوما بطوله فى العربة يؤدى بعض الأمور التافهة . وهو الآن ينوى السفر الى الخارج ليدرس تنظيم الفنادق هناك ، وقد سيطرت عليه الفكرة تماما فى الوقت الحاضر .

وذات يوم من أيام الخريف ، ذهبت يوليا الى الجانب الآخر من المنزل لتبكى ، وكان لابتيف ممددا على الأريكة فى حجرة مكتبه لا يدرى الى أين يذهب ، حــين دخل « بيوتر » ليعلن مقــدم « راسودينا » . قفز لابتيف فى سعادة وأسرع لمقابلة الزائرة غير المتوقعة . لم يكن يفكر أبدا هذه الايام فى عشيقته الســـابقة . ووجدها تماما كما تركها فى تلك الليلة الأخيرة .

صاح وهو يمد يديه نحوها :

« بولينا ! مرت قرون منذ تقابلنا آخر مرة ! لا تستطيعين تصور مدى سعادتى برؤيتك ! تفضلى ! » .

هزت راسودينا يده وهى تحييه ، ثم دخلت الى حجرة المكتب دون أن تخلع قبعتها ولا معطفها ، وجلست ، ثم قالت :

ـ « لن أعطك أكثر من دقائق قليلة ، فليس لدى وقت للثرثرة معك . أرجو أن تتكرم بالجلوس والاستماع الى ما سأقوله . وسواء كنت سعيداً لرؤيتى أو لم تكن فهذه مسألة لا أهمية لها بالمرة فى نظرى ما دمت لا أعلق أى أهمية على الأفضال التى يتكرم بها جنس الذكور . لقد جئت اليك فقط لأنى ذهبت بالفعل الى خمسة أماكن أخرى ، ورفض طلبى فى كل مكان ، والمسألة عاجلة ، استمع الى .. » .

وواصلت حديثها وهى تنظر اليه فى عينيه مباشرة :

ـ « هناك خمسة طلاب من معارفى ، قد يكونون حمقى ومبذرين، ولكنهم فقراء بلا جدال ، وقد عجزوا عن دفع رسوم تعليمهم ، وهم الآن على وشك أن يفصلوا . وثروتك تسمح بأن يعتمد عليك فى أن تذهب الى الجامعة وتدفع لهم .

ـ بكل سرور يا بولينا .

ـ « هاك أسماؤهم » .

قالت راسودينا ذلك ، وقدمت له قصاصة من الورق :

ـ « اذهب فى الحال ، وتستطيع أن تستمتع بسعادتك المنزلية فيما بعد » .

فى تلك اللحظة سمعا حفيفا خلف الباب المؤدى الى حجرة الاستقبال ـ لعله كلب يهرش . فاحمر وجه راسودينا وقفزت واقفة وهى تقول :

ــ « زوجتك تسترق السمع . يا للوضاعة ! » .

أحس لابتيف بلذعة ألم لهذه الاهانة الموجهة لبوليا ، فقال :

ــ « انها ليست هنا ، بل هى فى الجـــانب الآخر من البيت . وأرجوك لا تتكلمى عنها بهذه الطريقة . لقد ماتت طفلتنا أخيرا وهى فى غاية الارتباك » .

وقالت راسودينا بلهجة لاذعة وهى تعود الى مقعدها :

ــ « تستطيع أن تواسيها ، فسوف ترزق بعشرة أطفال آخرين . فلا شك ان الانسان لا يحتاج الى شىء من الذكاء لينجب الأطفال » .

تذكر لابتيف أنه سمع شيئا كهذا مرات عديدة منذ زمن بعيـــد وجرفته للحظـــة ذكريات الأيام الماضية الحلوة ، أيام العـــــــزوبية الحرة حين كان يحس أنه شاب وانه ليس هناك شىء لا يستطيع عمله ، وحينما لم يكن هناك حب لزوجته ، ولا ذكريات عن طفلته . وقال وهو يتمطى :

ــ « هيا بنا معا » .

***

انتظرت راسودينا خارج الجـــــامعة ، فى حين ذهب هو الى الادارة .

وحين عاد سأل وهو يسلمها الايصالات الخمسة :

ــ « الى أين أنت ذاهبة الآن !

ــ الى بيت يارتسيف ..

ــ سأذهب معك ..

ــ « انه يعمل ، وسوف تزعجه لا أكثر .. » .

فقال وهو ينظر اليها متوسلا :

ــ « لا ، لن أفعل ، أعدك بذلك ! » .

كانت ترتدى قبعة سوداء يحيط بها اطار من الحرير وكأنها فى

حداد ، وسترة قصيرة جدا وباهتة ذات جيوب واسعة . وبدا انفها اطول منه فى اى وقت آخر ، وكان وجهها خاليا من كل لون بالرغم من الصقيع .

وجد لابتيف متعة فى السير خلفها بوداعة ، مطيعا لها منصتا لتذمراتها . واصل مسيره وهو يعجب من القوة الداخلية لهـذه المرأة ، فهى بالرغم من أنها ليست جميلة ، وبالرغم من ذبولهـا واضطرابها ، وبالرغم من ملابسها غير المعقولة ، وشعرها المشعث ، ومظهرها الفظ ، فلها مع ذلك سحر خاص .

دخلا مسكن يارتسيف من الباب الخلفى المؤدى الى المطبخ حيث قابلتهما الطاهية ، وهى امرأة عجوز ضئيلة الحجم نظيفة المظهر ذات خصلات رمادية ، بدا عليها الانزعاج الشديد ، وان قالت بابتسامة لزجة جعلت وجهها الصغير يبدو كأنه فطيرة :

ـ « تفضلا من هنا » .

لم يكن يارتسيف فى البيت . وجلست راسودينا أمام المعزف وبدأت سلسلة لا تنتهى من التمرينات الجافة الشاقة ، بعد أن أمرت لابتيف بألا يعطلها . ولم يحـاول أن يكلمها ، بل جلس فى ركن يتصفح جريدة « الهيرالد الأوروبية » . وبعد أن تدربت ساعتين ـ وهما حصتها اليومية ـ تناولت وجبة سريعة فى المطبخ ثم خرجت لاعطاء دروسها .

وقرأ لابتيف تكملة احدى الروايات ، ثم جلس وقتـا طويلا لا يقرأ ، ولا يشعر بالملل ، بل كان سعيدا لأن الوقت قد أصبح متأخرا بالفعل للعودة الى بيته للغداء .

سمع صوت يارتسيف العالى فى الردهة :

ـ « هو ! هو ! هو ! » .

ثم دخل وقد بدت عليه معالم الصحة الجيدة والنشاط ، كان

احمر الخدين يرتدى سترة فراك جديدة ذات أزرار لامعة ، وقال :

ـ « هو ! هو ! هو » .

تناول الصديقان غداءهما معا . وبعد الغداء تمدد لابتيف على الأريكة فى حين جلس يارتسيف بجواره وأشعل سيجارة . وكان الغسق قد حل . فقال لابتيف :

ـ « لابد أنى تقدمت فى السن كثيرا ، فمنذ توفيت شقيقتى نينا أجدنى كثير التفكير فى الموت » .

تحدثا عن الموت ، وعن خلود الروح ، وكيف انه يكون أمرا بديعا لو عاد الانسان الى الحياة حقا وطار الى المريخ أو الى مكان ما حيث يستطيع أن يعيش سعيدا بلا عمل الى الأبد ، وبالاضافة الى ذلك يستطيع أن يكون حرا ليحيا حياة الروح . وقال يارتسيف برقة :

ـ « ومع ذلك ، فأنا لا أريد أن أموت . وليست هناك فلسفة يمكن أن تعزينى عن فكرة الموت . فأنا أعتبره نهاية كل شيء ، وأريد أن أعيش .

ـ هل تحب حياتك ؟

ـ نعم ، أحبها .

ـ أما بالنسبة الى ، فأنا لا أستطيع فهم نفسى أبدا . أجدنى دائما ممزقا بين اليأس المظلم وعدم الاكتراث التام . أنا خجول ، لا ثقة لى بنفسى ، ضميرى جبان ، وأنا عاجز تماما عن التكيف مع الحياة لأصبح سيد مصيرى . الرجال الآخرون يقولون كلاما فارغا ، أو يخدع كل منهم الآخر ، ويجدون متعة فى ذلك ، فى حين لا أجدنى الا مضطرا أو غير مكترث ، حتى وأنا أحاول فعل الخير . اعتقد أن سبب ذلك انى عبد ، حفيد رجل من الرقيق . وكثيرون منا نحن الرعاع سيهلكون قبل أن يوفقوا الى تحرير أنفسهم ! » .

وقال يارتسيف وهو يتنهد :

ـ « كل هذا جميل يا صديقى ، وهو يوضح مرة أخرى مدى خصوبة الحياة فى روسيا وتنوعها . آه ، ما أشد خصوبتها ! ان اقتناعى ليزداد يوما بعد يوم بأن اليوم الذى نعيشه الآن انما هو عشية انتصار عظيم ، وأحب أن أعيش لأشارك فى هذا الانتصار . صدق أو لا تصدق ، ولكنى أحس أن الجيل الذى ينمو الآن انما هو جيل عظيم . وحينما أعلم الأطفال ، والبنات منهم بصفة أخص، أمتلىء سعادة . انهم أطفال رائعون ! » .

ذهب يارتسيف الى المعـــــزف وعزف عليه نغمة ، ثم استأنف حديثه :

ـ « أنا كيميائى ، افكر بأسلوب الكيمياء ، وسوف أموت وأنا كيميائى ، ولكنى غير مستقر ، أخشى أن أموت قبل أن أحصل على كفايتى ، فالكيمياء لا تكفينى ، ويجب أن أدرس تاريخ روسيا ، وتاريخ الفنون ، ونظريات التربية ، والموسيقى .. ذات مرة فى الصيف الماضى اقترحت على زوجتك أن أكتب مسرحية تاريخية ، والآن أعتقـــد أنى أستطيع أن أجلس للكتابة ثلاثة أيام بلياليهـــا بلا انقطــــــاع ودون أن انهض . رأسى مكتظ ، ممتلىء الى حافته بالأفكار ، حتى ليوشك أن ينفجـــر ، وأستطيع أن أحس بنبضه واختلاجه . أنا لا أهدف الى أن اكون شيئا غير عادى ، ولا أتوقع أن أخلق احدى الروائع ، كل ما أريده هو أن أعيش ، وأحلم ، وأتطلع ، ولا يفوتنى شىء .. الحياة ، يا صديقى العزيز ، قصيرة جدا ، ويجب أن نستغلها بأقصى ما نستطيع » .

بعد هذا الحديث الودى الذى استمر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بدأ لابتيف يزور يارتسيف كل يوم تقريبا . كان يحضر عادة قرب المساء ، ويتمدد على الأريكة ينتظر مجىء يارتسيف . وبعد

العشاء ، كان يارتسيف يجلس للعمل ، ولكن بعد قليل يسأله لابتيف سؤالا . فيبدأ محادثة ، وينسى يارتسيف العمل ، وعند منتصف الليل يفترق الصديقان ، وقد شعر كل منهما بمزيد من السرور نحو الآخر .

ولكن ذلك لم يستمر طويلا . فذات مرة ، حين جاء لابتيف وجد « راسودينا » جالسة الى المعزف تعزف تدريباتها . ولم تقدم له يدها ، وقالت له وهى تنظر اليه نظرات تكاد تكون عدائية :

— « هل تتكرم وتخبرنى متى سينتهى ذلك ؟ » .

وسألها لابتيف مذهولا ؟

— « ماذا تقصدين ؟ » .

— انك تأتى الى هنـــا كل يوم وتعطل يارتسيف عن عمله . ويارتسيف ليس تاجرا ، انه عالم وكل دقيقة فى حياته ثمينة كان يجب أن تفهم هذا وتتزود ولو بقدر ضئيل من حسن التقدير » .

أخذ لابتيف وقال بخجل :

— « اذا كنت تعتقدين انى أعطله حقا ، فسأكف عن المجىء .

— رائع . والآن أذهب ، والا جاء ووجدك هنا » .

وأزعجته الى أبعد حد النغمة التى قالت بها هذا ونظرة عدم الاكتراث فى عينيها . اذ وضح له أنها لم يعد فى نفسها أقل احساس نحوه . وكان كل ما تريده هو أن يذهب . لشد ما يختلف الأمر الآن عما كان عليه من قبل !

خرج دون أن يصافحها ، متوقعا أن تناديه ليعود ، ولكنها استأنفت على الفور عزف تدريباتها الموسيقية ، وبينما كان يهبط الدرج ببطء شعر أنه قد أصبح بالفعل غريبا بالنسبة اليها .

بعد ثلاثة أيام جاء يارتسيف ليقضى المساء عنده . وقال وهو يضحك ضحكة قصيرة :

ـ « لدى أخبار لك . لقد جاءت بولينا نيكولاييفنا لتعيش معى » .

وبدا مرتبكا بعض الشيء وهو يواصل حديثه بصوت أشـــــد انخفاضا :

ـ « فى الحقيقة . من المؤكد أننا لا يحب أحدنا الآخر ، ولكنى لا أعتقد أن هذا يهم حقا . أنا سعيد لأنى أستطيع أن أقدم لهـا مأوى ، وأمكنها من الا تضطر للعمل اذا مرضت . وهى تعتقد أن حياتى ستصبح أكثر نظاما لو عاشت معى ، وأنى بتأثيرها سأصبح عالما عظيما . هذا ما تظنه .

فلتستمر فى هذا الظن . « فالأحمق غنى بظنونه » . كما يقول أهل الجنوب فى أمثالهم . هو ! هو ! » .

لم يقل لابتيف شيئا . وبدأ يارتسيف يذرع الحجرة ، ويتوقف ليحدق فى اللوحات التى رآها مرات كثيرة من قبل ثم قال وهـو يتنهد :

ـ « نعم ، يا صديقى ، فأنا أكبر منك بثلاث سنوات ، وقد فات بالفعل الوقت الذى يمكن أن أفكر فيه فى حب حقيقى . والواقع أن امرأة مثل بولينا نيكولاييفنا تعتبر هدية من السماء بالنسبة الى ، ولا شك انى سأعيش معها فى سلام حتى مرحلة متأخرة من العمر ، ولكنى مع ذلك لا أملك مقاومة الاحســـاس بأنى حرمت من شيء ، وما زلت أحن الى شيء ، وأظل أتصور نفسى « مستلقيا فى وادى بداغستان أحلم بحفلة راقصة كبرى » ، أو بكلمات أخرى ، الانسان لا يقنع أبدا بما لديه » .

ثم دخل الى حجرة الاستقبال وغنى بعض أغانى الحب تماما وكأن شيئا لم يحدث ، فى حين جلس لابتيف فى حجرة مكتبه وقد أغلق عينيه وأخذ يحاول أن يفهم لماذا ذهبت راسودينا لتعيش مع

يارتسيف . واحزنه أن يعتقد انه لا وجود لشيء مثل علاقة ثابتة مستمرة ، وغضب على يولينا نيكولاييفنا لأنها ذهبت الى يارتسيف ، وغضب على نفسه لأنه لم يعد يحب زوجته كما كان يحبها ذات يوم .

— ١٥ —

جلس لابتيف يقرأ فى مقعده الكبير ذى اليدين ، وأخذ يتأرجح من جانب الى آخر وقد شغله التفكير . وكانت يوليـــا تقرأ هى الأخرى . منذ الصباح لم يتبادلا كلمة واحدة ، اذ بدا أنه ليس هناك ما يتحدثان عنه . وقال لابتيف لنفسه وهو يحدجها بنظراته من فوق كتابه بين الحين والآخر :

« ما الفرق بين أن يتزوج الانسان عن حب وبين أن يتزوج بدون حب ؟ » .

كم تبدو الآن بعيدة تلك الأيام التى كان يغار فيها ، تلك الأيام التى عرف فيها القلق والعذاب ! منذ ذلك الحين وهو بالخارج ، وها هو ذا يستريح من رحلته ، لقد أعجبته انجلترا ، وقرر أن يعود اليها فى الربيع .

وكانت يوليا سيرجيفنا قد اعتادت حزنها الآن ، ولم تعد تنسحب بعيدا لتبكى . وفى ذلك الشتاء لم تطف ببيوت الأزياء ولم تذهب كذلك للمسارح ولا للحفلات الموسيقية . ولما كانت لا تحب الحجرات الكبيرة ، فقد كانت تمضى وقتهـــا اما فى مكتب زوجها واما فى حجرتها حيث تحتفظ بالأيقـــونات التى كانت جزءا من بائنتها ، والمنظر الطبيعى الذى أعجبها فى المعرض . وقلما كانت تصرف نقودا على نفسها — لم تزد على المبلغ الذى كانت تصرفه حينما كانت تعيش مع أبيها .

كان شتاء مملا الى ابعد حد . كل من فى موسكو لعبوا الورق خلال هذا الفصل ، وحتى حينما كانوا يحـــاولون تسلية أنفسهم بالغناء ، أو القراءة ، أو الرسم ، كانت النتيجة مزيدا من الملل . ولما كانت المواهب شحيحة جدا فى موسكو ، ونفس المطـــــــربين والخطباء يمارسون نشاطهم فى كل مكان ، فقد ذبل الفن وتحول فى نظر الكثيرين الى واجب ممل مرهق لا اكثر .

وفضلا عن ذلك ، فقـد كان كل يوم يأتى لآل لابتيف بمتـاعب جديدة . فقد ضعف نظر فيودور ستيبانيتش العجوز الى أبعـد حد ، ولم يعد يذهب الى المخزن ، وتنبأ طبيبه بأنه سرعان ما سيفقد البصر تماما . وكف فيودور كذلك عن الذهاب الى المخزن لسبب ما ، وكان يقضى كل وقته فى البيت ، يكتب . وبانوروف الذى نجح فى نقل نفسه الى مدينة أخرى ورقى الى وظيفة مستشار دولة ، أصبح يعيش الآن فى فندق درسدن ، ويأتى كل يوم تقريبا الى لابتيف ليقترض نقودا . اما « كيش » فقد تخرج أخيرا فى الجامعة ، وهو ينتظر الآن أن يجد له لابتيف وظيفة مناسبة ، وفى هـذه الأثناء يقضى فى بيتهم أياما بطولها يروى حكاياته التى لا تنتهى . كل ذلك أثار أعصاب لآبتيف وأرهقه وجعل حياته تعسة الى أبعد حد .

دخل بيوتر الى حجرة المكتب ليعلن أن سيدة ترغب فى مقـابلة سيده . وقـدم للابتيف بطـــاقة زيارة كتب عليها : « جوزفينا أيوسيفوفنا . ميلانو » .

نهضت يوليا سيرجيفنا برشاقة وخرجت وهى تعرج عرجا خفيفا فى مشيتها من أثر تشنج فى قدمها . وظهرت عند الباب سيدة ترتدى السواد ، كانت نحيلة ، ذات حاجبين سوداوين بارزين فى وجهها الشاحب . وقالت وهى تضغط يديها على صدرها :

ـ « مسيو لابتيف ، انقذ طفلتى الصغيرتين ! » .

كان رنين الأساور ولطخ المساحيق مألوفين للابتيف ، انهـــا السيدة التى تغذى فى منزلهـــا دون داع قبيل زواجه مباشرة ـ زوجة بانوروف الثانية .

وعادت تكرر ووجهها يتقلص :

ـ « انقذ طفلتى الصغيرتين ! » .

وفجأة بدت عجوزا تستثير الشفقة واحمرت عيناها :

ـ « انت وحدك الذى تستطيع انقاذنا . لقد أنفقت آخر ما معى من نقود لكى أحضر الى هنا ، الى موسكو . ستموت طفلتاى من الجوع » .

وتقدمت بصـــورة توحى بأنهـــا ستجثو على ركبتيها . فأمسكها لابتيف من ذراعها بفزع ، وتمتم قائلا وهو يقودها الى أحد المقاعد :

ـ « تفضلى بالجلوس ، اجلسى أرجوك » .

قالت :

ـ « ليس لدينا نقود حتى لشراء الخبز . سيسافر جريجورى نيكولاييفيتش ليتسلم وظيفة جديدة ، ولكنه لا يريد أن يأخذنى معه أنا والطفلتين ، والنقود التى ترسلها الينا بكرمك الفائق ينفقها على نفسه ، فماذا نصنع ؟ آه يا لطفلتى المسكينتين التعيستين !

ـ اطمئنى أرجوك . سأصدر أمرى لموظفى بأن يرسلوا النقود لك شخصيا » .

كانت تبكى بصوت مرتفع ، ولكنها بدأت تهدأ الآن ، ولاحظ أن الدموع خلقت مجارى عميقة وسط المساحيق المتكاثفة على وجنتيها، وأن لها شاربا .

ـ « مسيو لابتيف ما اشد كرمك ، ولكننى أرجوك أن تكون ملاكنا الحارس ، وراعينا المنقـذ ، فتقنع جريجورى نيكولانيفيتش

بالا يهجرنا . قل له ان يأخذنى معه . فأنا أحبه ، أحبه بجنون ، ولا عزاء لى سواه » .

اعطاها لابتيف مائة روبل ووعدها بأن يحادث بانوروف، ثم اوصلها حتى الباب ، وهو يخشى طوال الوقت أن تنفجر فى البكاء او تجثو على ركبتيها مرة أخرى .

وبعد ان ذهبت جاء « كيش » ، ثم تلاه كوستيا ومعه آلة تصويره. لقد أغرم فى الفترة الأخيرة بالتصوير الفوتوغرافى ، وغان يصور جميع من فى المنزل عدة مرات كل يوم . وقد تسببت له هذه الهواية الجديدة فى كثير من المتاعب ، بل وفقد بسببها قدرا غير قليل من وزنه .

وقبيل موعد تناول الشاى وصل فيودور . وبعد أن اتخذ لنفسه مقعدا مريحا فى حجرة المكتب ، فتح كتابا وجلس يحدق فيه طويلا ، وكان من الواضح انه لا يقرأ شيئا . وظل يتريث وقتا طويلا فوق شايه حتى احمر وجهه . وأحس لابتيف حزنا مؤلما لوجود فيودور ، حتى صمته كان مزعجا .

وأخيرا قال فيودور :

ـ « تستطيع أن تهنىء روسيا لفوزها بصحفى جديد . ألكسى لندع المزاح جانبا ، لقد كتبت مقالة ، أو محاولة من محاولات القلم اذا شئت ، وقد أحضرتها معى لأريها لك . اقراها ، فأنت صديق طيب ، وقل لى ما رايك فيها . ولكن تذكر انى أريد رايك الصريح » .

واخرج مفكرة من جيبه وقدمها لشقيقه .

كان عنوان المقالة : « الروح الروسية » ، وكانت مكتوبة بتلك اللغة المملة التى لا لون لها والتى يستخدمها عادة أولئك الذين لا يملكون أى قدر من الموهبة وان كانوا مغرورين مع ذلك فى أعماقهم ، والفكرة الرئيسية فى المقالة هى أن من حق المثقف الا

يؤمن بالغيبيات ، ولكنه يجب عليه أن يخفى عدم ايمانه لكيلا يقود الآخرين الى البلبلة ويزلزل ايمان الناس ، فبدون الايمان تنهار المثل العليا ، والمثالية هى المقدر لها أن تنقذ أوروبا وتهدى البشرية الى طريق الصواب .

وقال لابتيف :

ــ « ولكنك لم تقل ما الذى ستنقذ أوروبا منه » .

ــ « هذا واضح » .

وعاد لابتيف يقول وهو ينهض ويذرع الأرض :

ــ « لا شيء من هذا أبدا . وهدفك من كتابة المقالة غير واضح أيضا . على كل حال هذا شأنك انت » .

ــ أعتزم نشرها فى كتيب صغير .

ــ « هذا شأنك » .

وظلا صامتين بضع دقائق . قال بعدها فيودور :

ــ « حقا ، ما أعمق حزنى لأنك أنت وأنا لا نشترك فى نفس الآراء . آه يا ألكسى ، ألكسى يا أخى العزيز ! انت وأنا روسيان ، نخشى الله ، وقلبانا كبيران ، فما قيمة كل هذه الأفكار الألمانية واليهودية العفنة بالنسبة لنا ؟ على كل حال ، أنا وأنت لسنا وضيعى الأصل بأى حال ، نحن عضوان فى أسرة تجارية مرموقة » .

واعترض لابتيف وهو يحاول كبح جماح غضبه :

ــ « أى أسرة تجارية مرموقة ؟ أسرة مرموقة ! كان أصحاب الأرض يجلدون جدنا . وكان كل موظف صغير حقير يبصق فى وجهه . جدى جلد أبى ، وأبى جلدك وجلدنى . أسرتنا المرموقة ماذا ورث عنها كل منا ؟ أى أعصاب واى دماء تلك التى ورثناها ؟ لقد ظللت ما يقرب من ثلاث سنوات تثرثر فى كل مكان كالمبشر ، وتتحدث بكل أنواع السخف ، والا هاأنتذا قد كتبت هذا .. هذا الخبل

الحقير ! وماذا عنى أنا ؟ أنظر الى . . ليس لدى مرونة ، ولا شجاعة، ولا قوة شخصية ، أخاف من كل خطوة أخطوها وكأن شـــخصا ما سيضربنى ، وأرتعد فرقا أمام كل أنواع الحقراء ، والحمقى ، والقذرين الذين يقلون عنى عقليا وروحيا ، أخاف من الكناسين فى الشوارع ، ومن البوابين ، ومن رجال البوليس والخفراء ، أخاف من الجميع ، لأنى خرجت من رحم امرأة فزعة ، ولأنى منذ طفولتى وأنا أزجر وأنهر وتساء معـــاملتى ! أنت وأنا نحسن صنعا اذا لم ننجب أطفـــالا أبدا . وأبتهـل الى الله ان تنتهى هـذه الأسرة المرموقة بنا ! » .

دخلت يوليا سيرجيفنا الحجرة وجلست الى المائدة وقالت :

ــ « هل كنتما تتناقشان حول شيء ما ؟ أرجو ألا أكون قد قطعت حديثكما » .

وأجاب فيودور :

ــ « لا أبدا ايتها الأخت الصغيرة . كنا نناقش مسألة مبدأ » .

ثم واصل حديثه وهو يلتفت نحو أخيه :

ــ « الآن أنت تسيء الى الأسرة ، ومع ذلك فهذه الأسرة أنشأت مشروعا تجاريا تقدر قيمته بالملايين . وهذا يساوى شيئا بلا شك .

ــ يا له من نجاح . مشروع تجارى تقدر قيمته بالملايين ! رجلا بلا أى ذكاء أو مواهب خارقة تصادف أن أصبح صاحب متجر ، ثم أثرى وظل يبيع بضائعه يوما بعد الآخر دون أى نظام أو هدف ، ودون أن يجهد نفسه فى جمع الثروة ، بل ظل يبيع بطريقة آلية لا أكثر ، وجاءت النقود متدفقة دون أن يبذل أى جهد من جانبه . انه يقضى حياته كلها فى العمل ويحبه لأنه ببساطة يتيح له فرصة التحكم فى موظفيه وخداع زبائنه . وهو أحد رؤساء الكنيسة لأنه هناك يستطيع ان يتحكم فى الجوقة ، ويجعل أفرادها ينفذون أوامره ،

وهو يرعى المدرسة لأنه يحب النفوذ الذى يتيحه له على غيره من الناس ، ومخزنكم ليس مشروعا تجاريا ولكنه سجن مظلم ! نعم ، ففى ذلك الطراز من أعمالكم لا تحتاجون الا الى موظفين مذعورين ، وهذا النوع تدربونه عن طريق الاجبار منذ الطفولة المبكرة على أن ينحنى أمامكم من أجل كسرة الخبز ، ومنذ الطفولة تعلمونهم أن ينظروا اليكم باعتباركم أصحاب الفضل عليهم . ولا يمكن أن تعينوا خريجا فى الجامعة فى مخزنكم ، لا يمكن أن تفعلوا ذلك ! » .

— « خريجو الجامعة لا يناسبون عملنا » .

وصرخ لابتيف :

— « هذا غير صحيح : هذا كذب ! » .

وقال فيودور وهو ينهض :

— « أرجو المعذرة ، ولكن يبدو أنك بدأت تلوث عشك ، أنت تحتقر عملنا ومع ذلك فحياتك قائمة على أرباحه » .

وقال لابتيف وهو يصدر ضحكة جافة والشرر يتطاير من عينيه :

— « أها ! هذا هو مربط الفرس . نعم ، فلو أنى لا أنتمى الى أسرتكم المرموقة ، ولو كان لدى مقدار كوبك واحد من العزيمة والشجاعة لأطحت بهذا الدخل منذ زمن بعيد وذهبت لأكسب حياتى بنفسى . ولكنكم فى مخزنكم هذا سلبتمونى العزيمة والشجاعة ! أنا أنتمى اليكم » .

نظر فيودور الى ساعته ثم أسرع بالاستئذان . وقبل يد يوليا ثم خرج . وبدلا من أن يذهب الى الردهة ، ذهب الى حجرة الاستقبال ، ومنها الى حجرة النوم .

وقال يائسا :

— « لقد تهت . يا له من منزل غريب . أو ليس منزلا غريبا فعلا ؟ » .

وبدا مذهولا وهو يرتدى معطفه ، وعلى وجهه كانت نظرة عذاب . انفثأ غضب لابتيف ، وانتابه الآن فزع وفى نفس الوقت اشفاق على فيودور ، وشعر بذلك الحب الدافىء الأصيل نحو شقيقه يستيقظ فى صدره ، وكان يظنه قد مات خلال السنوات الثلاث الماضية ، وأحس فى نفسه رغبـــة جارفة فى أن يعبر عن ذلك الحب بأى طريقة ، فقال وهو يربت على كتف شقيقه :

- « فيودور يجب أن تأتى لتتغدى معنا غدا . هل ستأتى ؟

- نعم ، نعم . ولكن اعطنى كوبا من الماء ، أرجوك » .

وجرى لابتيف الى حجرة الطعام ، وأمسك بأول شىء عثر عليه وكان كأس جعة طويلا ، وملأه بالماء وأحضره لشقيقه . عب فيودور الماء عبا ، ولكنه فجأة عض حافة الكأس ، وسمع صوت طحن ثم نحيب . وسقط الماء على معطفه وعباءته . ولم يكن لابتيف قد شهد رجلا يبكى من قبل ، فوقف مذعورا مرتبكا ، فى حين أخذت يوليا والخادمة معطف فيودور وقادتاه عائدتين به الى حجرة الاستقبال ، وتبعهما وقد ملأه احساس بالذنب .

جعلت يوليا « فيودور » يتمدد على الاريكة ، وجثت على ركبتيها الى جواره ، وقالت مواسية :

- « لا شىء أبدا . مجرد ارهاق عصبى .. » .

فقـــال :

- « أنا يائس ، أنا شديد التعاسة .. ولكنى ظللت اخفى ذلك طوال الوقت ! » .

ووضع ذراعه حول عنقها وهمس فى اذنها :

- « أنا أحلم كل ليلة بشقيقتى نينا . تأتى وتجلس على المقعد الوثير المجاور لسريرى .. » .

وبعد ساعة كان يرتدى معطفه فى الردهة مرة أخرى ، وكان

الآن يبتسم ، ويحس بالخجل من الخادمة . وأوصله لابتيف الى البيت . وقال وهما فى الطـــــريق الى بيت فيودور فى شارع بيانيتسكايا :

– « يجب أن تحضر للغداء غدا . وفى عيد الفصح سنسافر الى الخارج معا . أنت بحاجة الى التغيير فقد أرهقت كثيرا ..

– نعم ، نعم . سأذهب ، سأذهب .. وسنأخذ الأخت الصغيرة معنا » .

وحين عاد لابتيف الى البيت ، وجد زوجته فى حالة اضطراب عصبى ـ فقد هزها انهيار فيودور بعنف . لم تكن تبكى ولكنها كانت شديدة الشحوب ، وكانت تنقلب فى السرير وتنشب أصابعها المثلجة فى الملاءة والوسادة ويدى زوجها . كانت عيناها متسعتين ومذعورتين توسلت قائلة :

– « لا تتركنى ، لا تتركنى . اخبرنى يا ألكسى لماذا كففت عن الصلاة ؟ ما أصاب ايمانى ؟ آه ، لماذا تحدثت عن الدين كثيرا أمامى ! لقد أربكت عقلى ، أنت وأصدقاؤك . فلم أعد أصلى » .

استعان بالكمادات الباردة على جبهتها ، وأخذ يدفىء يديها ، وقدم لها شايا لتشربه ، ولكنها ظلت متشبثة به فى فزع .

وقرب الصباح استغرقت فى نوم مجهد ، وظـل لابتيف جالسا بجوارها ممسكا بيدها ، ولم يذهب الى الفراش فى تلك الليلة ، وظل طوال اليوم التالى يشعر بالارهاق فى عقله وجسده ، وظل يتجول فى المنزل بلا هدف ، مشلول الفكر .

- ١٦ -

قال الأطباء ان فيودور مضطرب عقليا . ولم يكن لابتيف ليعرف شئيا عما يدور فى بياتنيتسكايا ، وبدا المخزن الكئيب فى نظـــره كالمقبرة دون العجوز وفيودور . وحين كانت زوجته تقول له انه يجب أن يزور المخزن والبيت فى بياتنيتسكايا كل يوم ، كان لا يجيب أو يشرع فى الحديث باضطراب عن طفولته ، قائلا انه لا يستطيع ان يعفو عن أبيه بسبب الماضى ، وان كلا من بيتنيتسكايا والمخزن كريه فى نظره .. وهكذا .

وفى صباح يوم أحد ذهبت يوليـــا الى بياتنيتسكايا بنفسها ، فوجدت فيودور ستبانيتش العجوز فى نفس حجرة الاستقبال التى أقيمت فيها صلوات الكنيسة بمناسبة وصولهـــــا . وكان يرتدى سترة من الكتان الخشن دون رباط عنق ، ويجلس بلا حراك فى مقعد كبير ويطرف بعينيه الضريرتين .

قالت وهى تتقدم نحوه :

ـ « أنا زوجة ابنك ، جئت لأراك » .

بدأ يتنفس بصعوبة . وانفعلت بحزنها ووحدتها فقبلت يده ، وتحسس وجهها ورأسها ، كأنما ليتأكد أنها هى ، ثم رسم علامة الصليب فوقها وقال :

ـ « شكرا لك ، شكرا لك ، لقد فقدت بصرى كما تعلمين ، ولم أعد أرى .. أستطيع أن أميز بغير وضوح النافـــذة والنار ، أما

الناس والأشياء فلا أستطيع رؤيتها .. نعم ، سوف أصبح أعمى . وفيودور مريض وليس هناك من يراقب الأشياء . من سيعاقب المذنب اذا وقع خطأ ما . سيخرج العمال من أيدينا تماما . ماذا حدث لفيودور ؟ هل أصيب ببرد ؟ أنا لم أمرض طوال حياتى ولم أتعاط أدوية أبدا . ولم يكن لى أى صلة بالأطباء » .

وكالعادة دائما بدأ العجوز يفخر بنفسه . وفى هـــذه الأثناء أسرعت الخادمة باعداد المائدة ، ووضعت عليهـــــا أدوات الطعام والشراب . وظهر ما يقرب من عشر زجاجات ، من بينها واحدة تشبه برج ايفل . وقدم طبق كبير من الفطائر الساخنة تنبعث منها رائحة الأرز المقلى والأسماك .

وقال العجوز :

ـ « يجب أن تأكلى معى قليلا يا عزيزتى » .

أمسكت بذراعه وقادته الى المائدة وصبت له شيئا من الفودكا ، ثم قالت :

ـ « سأحضر غدا مرة أخرى واحضر معى حفيدتيك « ساشا » و « ليدا » سيسران برؤية جدهما .

ـ لا ، لا تحضريهما . انهما غير شرعيتين .

ـ لماذا تقول هذا ؟ لقد كان أبوهما وأمهما متزوجين .

ـ نعم ، ولكن دون موافقتى . لم أباركهما ولا أريد أن يكون لى شأن بهما . فليرعهما الله » .

وقالت يوليا وهى تتنهد :

ـ « ما أغرب ما تقول يا فيودور ستبانيتش .

ـ يقول الانجيل ، يجب أن يحترم الأطفال آباءهم ويخشوهم .

ـ لا ، الانجيل لا يقول ذلك ، بل يقول اننا يجب أن نعفو عن أعدائنا .

ـ لا يمكن أن يكون هناك اى عفو فى مسألة كمسألتنا . ولو أنك بدأت تعفين عن الجميع فسوف تفلسين فى بحر ثلاث سنوات .

ـ « ولكن أن تعفو ، وتقول كلمة طيبة حتى لمن أخطأ فى حقك أهم بكثير من العمل أو الثروة » .

أرادت يوليا أن تلين قلب العجوز ، وتوقظ فيه الشفقة وتأنيب الضمير ، ولكنه استمع الى كل ما قالته كما يستمع الكبار الى ثرثرة الأطفـال .

وقالت يوليا بحزم :

ـ فيودور ستبانيتش ، لقد أصبحت عجوزا بالفعل ، وعما قريب سيستدعيك الله الى جواره ، وهو لن يسألك كيف أدرت عملك ، وعما اذا كانت تجارتك قد ازدهرت أو لا ، ولكنه سيسألك هل كنت كريما مع اخيك الانسان أو لا ، وهل كنت قاسيا مع من هم اضعف منك ، مع خدمك وموظفى المبيعات مثلا .

ـ لقد كنت دائما محسنا على كل موظفى ، ويجب أن يظلوا شاكرين دائما أن كان لهم صاحب عمل مثلى » .

قال العجوز ذلك بايمان . ولكنه تأثر بالنبرة المتلهفة فى حديث يوليا ، ولكى يبعث السرور فى نفسها أضاف :

ـ « حسن جدا ، تستطيعين أن تحضرى الطفلتين غدا . وسآمر باحضار بعض الهدايا لهما » .

كان العجوز يرتدى ملابسه باهمـــال واضح ، وكان هناك رماد سيجار على صدره وركبتيه ، وكان من الواضح أن أحدا لا يعبــأ بتنظيف حذائه أو تفريش ملابسه . وكان الأرز فى الفطيرة سيىء الطهو ، ورائحة الصابون تنبعث من غطاء المائدة . والخادمة تدب بقدمها على الأرض . كان هناك جو عام من الاهمال للعجوز ولمنزل

بياتنيتسكايا كله ، وشعرت يوليا بالخجل من نفسها ومن زوجها ، قالت :

ــ « سأحضر غدا دون تأخير » .

تجولت فى الغرف ، وأمرت بترتيب سرير العجــــوز ، واشعال مصباح أيقونته . وكان فيودور جالسا فى حجرته يحدق فى كتاب مفتوح وكأنه يحدق فى الفضاء . فتحدثت يوليا معه وأمرت بتنظيف حجرته . ثم ذهبت الى مساكن الموظفين . وكانت هناك دعامة من الخشب غير المطلى ترفع السقف فى وسط الحجرة التى يتناول فيها الموظفون طعامهم ، وكانت الجدران مغطاة بورق حائط رخيص ، وثمة رائحة طبخ كريهة . وكان اليوم الأحد وجميع الموظفين بالمنزل جالسين على أسرتهم فى انتظار الطعام . وحين دخلت يوليا قفزوا واقفين وأجابوا عن أسئلتها بخجل ، وهم ينظرون اليها بحزن وكأنهم سجناء .

قالت وهى ترفع يديها الى أعلى :

ــ « يا لله ، يا له من مكان كئيب ! أو لستم مزدحمين هنا ؟ » .

وقال ماكيتشيف :

ــ « ليس لدينا ما نشكو منه يا ســـــيدتى . ونحن مدينون لك بالفضل العميم ، وندعو الله أن يباركك » .

وقال بوتشتكين بايجاز :

ــ « الاستجابة للحياة والطموح الشخصى » .

وسارع ماكيتشيف بالتوضيح قائلا :

ــ « نحن قوم متواضعون نعيش فى مستوى مركزنا » .

تفقدت يوليا جناح الصبيان والمطبخ ، ووجهت بعض الأسئلة الى مديرة البيت ، ثم انصرفت ، وهى فى شدة الضيق من كل ما رات .

وحين عادت الى البيت قالت لزوجها :

- يجب أن ننتقل الى بياتنيتسكايا بأسرع ما نستطيع ، ويجب أن تذهب الى المخزن كل يوم .

وظلا جالسين متجاورين فى حجـرة المكتب مدة طويلة دون أن يتحدثان . كان قلبه مثقلا ، ولم يكن يريد الذهاب لا الى بياتنيتسكايا ولا الى المخزن ، ولكنه خمن ما يدور فى ذهن زوجته ولم يجد فى نفسه القوة على معارضتها . فقال وهو يربت على خدها :

- « أحس كأن حياتنا قد انتهت بالفعل وأننا قد بدأنا نوعا من الوجود الباهت القريب من العدم . حين سمعت ان فيودور مريض مرضا ميئوسا منه بكيت . لقد أمضينا طفولتنا وشبابنا معا ، وفى فترة كنت أحبه حبا شديدا ، والآن تحدث هذه المصيبة . فأحس أنى أنفصل عن الماضى الى الأبد . والآن حين تقولين أننا يجب أن ننتقل الى بياتنيتسكايا ، الى ذلك السجن ، يداخلنى احساس بألا مستقبل لى أيضا » .

قام وسار الى النافذة . ثم قال وهو يحدق فى الشارع .

- « نعم ، يجب أن يبعد الانسان والى الأبد كل فكرة للسعادة . لا وجود لشىء كهذا . انى لم أعرفها أبدا ، وأشك فى امكان وجودها على الاطلاق . لقد سعدت مرة واحدة فى حياتى : تلكالليلة التى جلست فيها تحت مظلتك » .

واستدار نحو زوجته وسألها :

- « أتذكرين المظلة التى تركتها عند شقيقتى نينا ؟ كنت أحبك وقتها ، وأذكر أنى جلست تحت تلك المظلة طوال الليل وكنت فى حالة من السعادة الكاملة » .

والى جوار دولاب الكتب كانت هناك خزانة من الخشب الثمين والبرونز يحتفظ فيها لابتيف بمجموعة من الأشياء غير النافعة ، من

بينها المظلة ، فأخرجها وقدمها لزوجته وهو يقول :

ـ « ها هى ذى » .

نظرت يوليا الى المظلة لحظة ، وتذكرتها وابتسمت فى حزن ، ثم قالت :

ـ « نعم ، أتذكر الآن . كنت تمسـكها فى يدك وانت تطلب يدى » .

وبينما هو يتهيأ لمغادرة الغرفة قالت :

ـ « أرجو أن تحاول العودة الى البيت مبكرا بعض الشىء . فأنا أشعر بالوحشة بدونك » .

وصعدت الى غرفتها وظلت تحدق فى المظلة وقتا طويلا .

- ١٧ -

رغم ضخامة أعمـــال آل لابتيف وتشعبها فانهم لم يستخدموا محاسبا ، والدفاتر التى يحررها الـكاتب غير صالحة بالمرة . وكان وكيلا الأعمال الألمانى والانجليزى اللذان يحضران كل يوم الى المخزن يناقشان شئون الســـياسة والدين مع الموظفين . وثمة زائر آخر منتظم ، وهو نبيل سكير ، انه مخلوق مريض يستثير الاشفاق ، وكان يقوم بترجمة المراسلات الأجنبية للمتجر ، وكان الموظفون يسمونه « العاطفى » ويضعون الملح فى شايه . وكانت المؤسسة كلها تبدو غاية فى السخف فى نظر لابتيف .

انه الآن يذهب الى المخزن كل يوم ، ويبذل قصارى جهده لتغيير الأوضاع : فمنع جلد الصبيان ، وغش الزبائن ، واستشاط غضبا حين رأى الموظفين يقدمون بضائع قديمة لا تجد من يشتريها لزبون من الأقاليم على انها أحدث ما فى السوق . ولكن رغم أنه أصبح مسئولا عن المخزن الآن ، فلم يكن يعرف مقدار ثروته بالضبط ، ولا اذا ما كانت التجارة تزدهر أم لا ، ولا مقدار ما يتقاضاه كبار الموظفين . كان بوتشتكين وماكيتشيف يعتبرانه أصغر وأقل خبرة من أن يطلعاه على أسرار المؤسسة ، وكانا يعقدان كل مساء اجتماعات طويلة هامسة مع السيد العجوز الأعمى .

وذات يوم فى أوائل يونيو ذهب لابتيف وبوتشتكين الى حـــانة بوبنوف ليتعشيا ويتحدثان فى شئون العمل . كان بوتشتكين يعمل

مع آل لابتيف منذ كان فى الثامنة من عمره . وكانوا يعتبرونه فردا من الأسرة ويثقون به ثقة كاملة وقبل أن يغادر المخزن كان يأخذ ايصالات اليوم من الخزانة ويحشو بها جيوبه . كان السيد فى المخزن وفى البيت ، بل وفى الكنيسة أيضا ، حيث كان يؤدى واجبات شيخ الكنيسة بدلا من العجوز . ولوحشيته فى معاملة الصبية أطلقوا عليه اسم « مالايوتا سكولاتوف » .

حين دخلا الحانة واستدعى الساقى وقال له :

— « احضر لنا نصف الكنز وأربعا وعشرين أذية » .

وبعد تأخير قليل قدم لهما الساقى صينية عليها نصف زجاجة فودكا وعدة أطباق مصفوفة من المأكولات الباردة . فقال له بوتشتكين :

— والآن يا رجلى ، علينا بطبق من النميمة والفضائح مع بعض البطاطس المهروسة » .

وبدأ الارتباك على الساقى ، وكان على وشك أن يقول شيئا ، ولكن بوتشكتين حدجه بنظرة وقال :

— « وبالاضافة الى ذلك ! » .

قدح الساقى زناد ذهنه بعض الوقت ، ثم ذهب للتشاور مع زملائه ، وفى النهاية حل اللغز وأحضر طبقا من اللسان .

وبعد أن شربا كأسين وأكلا قليلا ، قال لابتيف :

— « هل صحيح أن تجارتنا بدأت فى التدهور خلال الأعوام القليلة الماضية ؟

— لا .. غير صحيح بالمرة .

— ارجوك أخبرنى بصراحة وشرف : ما مقدار المال الذى يدخل لنا ، وما رأس المال الذى لدينا فى الوقت الحاضر ؟ .. اننا لا نستطيع ان نستمر ونحن نتخبط . لقد رأيت حسابات المخزن منذ فترة

قريبة ، ولكن يحزنني أن أقول انى لا أصدقها ، فلسبب ما تعتقدون أنه من الضرورى أن تبقونى جاهلا ، ولا تقولوا الحقيقة الا لأبى . كانت هذه السياسة منذ كنت صبيا ، ولن تستطيع أن تستمر بدونها ولكن الآن حان الوقت لتركها . أرجوك كن صريحا معى . ما حالة حسأباتنا ؟ » .

وبعد لحظات من التدبر أجاب بوتشتكين :

ــ الأمر كله يتوقف على حمى البيع بالأجل .

ــ « ماذا يقصد بحمى البيع بالأجل ؟ » .

وبدأ بوتشتـــــــكين يشرح ، ولكن لابتيف لم يستطع أن يفهم ، وأرسل يستدعى ماكيتشيف . وحضر الأخير على الفور ، وتناول شيئا من الطعام بعد أن طلب الغفران ، ثم أعلن فى صوته الغليظ الصاخب أن الموظفين يجب أن يقدموا صلوات الشكر لله آناء الليل وأطراف النهار لأنه أتاح لهم أمثال هؤلاء السادة المحسنين .

وقال لابتيف :

ــ « هذا رائع ، ولكن اسمح لى الا أعتبر نفسى أحد المحسنين اليكم .

ــ على كل انسان أن يتذكر من هو ويعرف مكانه . وأنت ، بفضل من الله ، أبونا وراعينا ، ونحن عبيدك » .

وصرخ لابتيف غاضبا :

ــ « اسمع ، لقد تعبت وضقت ذرعا بــكل هذا ! هل تحب أن تكون أنت راعى وتحيطنى علما بحالة تجاربنا . اذا لم تكفا عن معاملتى كطفل فسوف أغلق المخزن غدا . ان أبى أعمى ، وأخى فى مصحة للأمراض العقلية ، وبنتا أختى قاصرتان ، وأنا أكره التجارة من كل قلبى ، وسوف يسعدنى أن أتخلى عنها ، ولكن ليس هناك من يحل

محلى ، كمـــا تعلمان بنفسيكما . لذلك بالله عليـكما أتركا هــذه السياسة الحمقاء التى تتبعانها » .

ذهب ثلاثتهم الى المخزن وبدأوا يراجعون الحسابات . وفى المساء واصلوا حساباتهم فى البيت ، بمساعدة العجوز . وكانت نغمـــة صوته وهو يحيط ابنه بأسرار مهنته توحى بأنه لا يعمل بالتجارة بل بالسحر الأسود . وظهر أن الدخل السنوى زاد بمقدار العشر ، وأن ثروة لابتيف من النقود السائلة والضمانات وحدها تصل الى ستة ملايين روبل .

كان الوقت بعد منتصف الليل حين خرج لابتيف ليستروح نسمة هواء ، وهو ما زال مأخوذا بهـــــذه الأرقام . وكانت ليلة قمرية حارة رطبة ، وكانت حوائط منازل موسكو البيضاء وأبوابها المثقلة بالمزاليج ، والصمت والأشباح القاتمة ، كانت كلها تشبه القلعة ، ولم يكن ينقصها سوى الحارس ببندقيته .

دخل لابتيف الحديقة الصغيرة وجلس على مقعد بالقـــرب من السور الذى يفصل فناءهم عن فناء الجيران . كانت شجرة طائر الكرز مزهرة ، ولابتيف يذكر هذه الشجرة من أيام طفولته ، ما زالت بالضبط كما كانت فى ذلك الحين ، بنفس تعقد جذعها ، ولم يزد طولها بوصة واحدة . كل ركن فى الحـــديقة والفناء يستثير فيه ذكريات الماضى البعيد . الماضى كالحاضر ، تذكر كيف كنت تستطيع أن ترى من بين فروع الأشجار الفناء وقد أضاءه ضوء القمر . وفى تلك الأيام كذلك كانت الأشباح قاتمة وغامضة ، وتمطى كلب وسط الفناء ، وتثاءبت نوافذ مسكن الموظفين ثم فتحت . ولم يكن فى كل ذلك ذكرى واحدة سعيدة .

سمع وقع أقدام خفيفة فى الفناء المجاور ، وصوت رجل يهمس الى جوار السور :

كانت الأصوات قريبة جدا من المكان الذى جلس فيه لابتيف ، بحيث استطاع أن يسمع تردد أنفاسهما . وتعانقا .

كان لابتيف واثقا بأن الملايين والتجارة التى يكرهها أشد الكرهية سوف تدمران حياته وتستعبدانه تماما ، ورأى نفسه وهو يتعود شيئا فشيئا على مكانته ، ويتخذ بالتدريج سمات مدير المؤسسة التجارية ، ثم يتقدم فى السن والشيخوخة ، وفى النهاية يموت كما يموت غيره من الناس ممن لا قيمة لهم – يائسا حزينا ، وعبئا على على كل من حوله . ولكن ما الذى يحول بينه وبين هجرة التجارة والابتعاد عن هذه الحديقة والفناء اللذين كرههما منذ طفولته ؟

وأثارته الهمسات والقبـــــــلات خلف السور . فسار الى وسط الفناء ، وفك القميص من حول عنقه ووقف يحدق فى القمر . بعد دقيقة سيأمر بفتح البوابة ويخرج من هذا الفناء ولا يعود أبدا . وقفز قلبه لفكرة الحرية ، وضحك بصوت مرتفع وهو يتخيل كيف يمكن أن تصبح الحياة مجيدة ، ورومانتيكية ، بل وربمـــا قدسية أيضا ..

ولكنه لم يتحرك من حيث كان يقف . وسأل نفسه :

« ما الذى يبقينى هنا ؟ » .

واحتقر نفسه وذلك الكلب الأسود المستلقى هناك على قطع الحجر بدلا من الجرى فى الحقول والغابات حيث يجد السعادة والحرية . من الواضح أنه وذلك الكلب كانا عاجزين عن مغادرة هذا المكان لنفس الأسباب : لقد تحولت القيود والعبودية الى عادة

***

وفى ظهر اليوم التالى ، ذهب الى « بوتوفو » حيث يمضون الصيف ، وصحب معه يارتسيف رغبة فى الرفقة . ولم يكن قد رأى

زوجته منذ خمسة أيام . ركبا عربة من المحطة وظل يارتسيف طول الطريق يغنى أغنيات ويمتدح روعة الجو .

كان المنزل يتوسط حديقة واسعة ، وقد وجد يوليـــــا تحت شجرة حور متشعبة عند بداية الشارع الرئيسى بالقرب من البوابة كانت ترتدى ثوبا صيفيا أنيقا لونه أصفر شاحب ومطرز بالدانتيلا ، وكانت ممسكة بمظلتها القديمة المألوفة . وتبادل بارتسيف معهـــا التحيات ، ثم أسرع نحو البيت حيث كانت تنبعث أصوات «ساسا» و « ليدا » ، فى حين جلس لابتيف ليتحدث مع زوجته .

ـ « لماذا تغيبت كثيرا هكذا ، لقد ظلت جالسة هنا يوما بعد الآخر أترقب عودتك . فأنا أحس بوحشة شديدة بدونك ! » .

ونهضت ومسحت على شـــعره ، وهى تتفحص وجهه وكتفيه وقبعته ، ثم قالت :

ـ « أتعلم أنى أحبك » .

واحمر وجهها وهى تضيف :

ـ « أنت عزيز على جدا . والآن قد جئت ، أراك وأجدنى سعيدة للغاية . فلنثرثر قليلا . قل لى شيئا » .

بينما كان ينصت لاعلانها حبها له ، أحس وكأنهما متزوجان منذ عشرة أعوام ، ورغب فى تناول غدائه .

ألقت بذراعيها حول رقبته ، فداعب حرير ثوبها خده ، تخلص منهـــا برفق ، ونهض ومضى فى الممر المؤدى الى البيت . وجرت الفتاتان الصغيرتان لملاقاته .

قال لنفسه :

ـ « لكم كبرتا ! وما أكثر التغييرات الهائلة التى حدثت خلال هذه السنوات الثلاث . تصور أن الانسان قد يعيش ثلاث عشرة

سنة أخرى ، أو ربما ثلاثين . ومن يستطيع أن يعلم ماذا يمكن أن يحدث وقتئذ . حسنا ، ليس بوسعنا الا أن ننتظر ونرى » .

ضم اليه ساشا وليدا اللتين تعلقتا برقبته . وقال :

ــ « جدكما يرسل اليكما حبه . والخال فيودور يموت . وصلنى خطاب من العم كوستيا فى أمريكا ، وهو يرسل اليكما تحياته . وقد كتب يقول انه مل المعارض وسوف يعود قريبا . والخال الكسى جائع » .

جلس بعد ذلك فى الشرفة ورأى زوجته قادمة فى الممر تسير ببطء فى اتجاه البيت . وبدت غارقة فى التفكير ، وبدا وجهها حزينا ساحرا ، وعيناها تفيضان بالدمع . لم تعد الآن فتاة نحيلة رقيقة شاحبة الوجه ، بل أصبحت سيدة ناضجة قوية وفاتنة . لقد لاحظ لابتيف تأثير جمال زوجته الجديدة على وجه يارتسيف المتأمل المشوق وهو يذهب للقائهما ــ فكأنه يراها الآن لأول مرة فى حياته . وبينما كانوا يتناولون الغداء فى الشرفة ، ارتسمت على شفتى يارتسيف ابتسامة سعيدة حية وهو جالس يحدق فى انثناءة جيدها الرائعة . ولم يستطع لابتيف الا أن يراقبه ، وهو يفكر فى ذات الوقت فى السنوات الثلاث عشرة أو ربما الثلاثين التى لعلها ما زالت أمامه . أشياء كثيرة جدا يمكن أن تحدث خلال هذه المدة . ومن يعلم ماذا يحمل المستقبل ؟

وقال لنفسه :

« سننتظر ونرى » .

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨١/٣٩٦٥
الترقيم الدولى x – ٩٨ – ٧٠٣١ – ٩٧٧ ISBN



هـذه الروايـة

« ثلاث سنوات ـ مشاهد من حياة عائلية» ·· كان هذا هو العنوان الذى اختاره الكاتب الروسى انطون تشيخوف « ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤» لهذه الرواية القصيرة ·

خلال تلك السنوات احب بطلها ـ ابن التـاجر الثرى ـ ابنـة طبيب بالاقاليم ، وتزوجها وصحبها معه الى موسكو ·· غير أن الصورة المنمنمة التى يرسـمها الكاتب لتلك السنوات الثلاث تتطلع الى الوراء والى الامام ، فترينا من أين جاء بطلا القصـة ، وماذا سيصبحان فى السنوات التالية ، هماومن يحيط بهما فى بيئتى موسكو والمدينة الاقليمية ·

وابرز شـخصيات الرواية واقواها اثراهو بلاشك الاب التاجر الطاغية الذى تسمح له التقاليد القبلية البالية بممارسة استبداده على كل من حوله بمنتهى القسوة وبأسـلوب خال من كل انسانية ·

واذا كان نقاد العالم يضعون تشيخوف على رأس اساتذة القصة القصيرة ، فان الحلق الرائع الذى كتب به هـذه الرواية يجعلها جـديرة بالمقارنة بأروع نمـاذج « رواية الاجيال » · فاذا أضفنا اليها بقية روايات تشيخوف ومسرحياته المتميزة ـ فضـلا عن قصصه القصيرة ـ ادركنا سر المكانة الادبية العظيمة التى يحتلها تشـيخوف فى الادب العالمى ·